www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المنار

بشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

أنشئ ١٣١٥

قال عليه الصلاة والسلام ان للاسلام صُرًى « وضاءا » كمنار الطريق

٨ محرم سنة ١٣٥ هـ ٣١ مارس سنة ١٩٣٦ م

المستشرقون والاسلام

بقلم الدكتور حسين الهراوى

مفتش صحة مصر القديمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من احمد نسيم الشاعر

الى الدكتور حسين الهراوى

قف وقفة بين اجلال واكبار ... واحمد دفاع طبيب الحي والدار

جلى « حسين » بشوط راح ينهبه ... شأن الجواد إذا جلى بمضمار

ما أنفك يهدي إلى الاسلام منكره ... والحق أبلج لا يخفى بأنكار

يقظان ما هدأت يوما شقاشقه ... كالفحل يتبع نهداراً بتهدار

في كفه قلم لو شاء أترعه ... سم الأساود أو شهداً لمشتار

مرقق الحد مبري له جدل ... يرضى النبي ويرضي الخالق الباري

يراعه كقناة الخط يرهبها ... سنان كل أصم الكعب خطار

تجري على الطرس آيا حين تقرأها ... يجري دم الرشد بالبادي وبالقاري

قويمه في ارتياد الحق أشرعها ... للأخذ بالحق لا للأخذ بالثار

تدفع الصدق من حيزومها ضبباً ... دفع الحضارم تياراً بتيار

من عترة برسول الله مشرقة ... ملء النواظر من زهر وأقمار

الله أنزل في الأحزاب أنهم ... من أهل بيت كرام الخيم أطهار

فما ارتضوا نزعات الأصر مأثمة ... ولا ارتدوا برد آثام وأوزار

ولا تقطع أمر الله بينهم ... ولا أصيب بنقص بعد امرار

أعظم بهم في مجال الدين من نفر ... مهاجرين ذوي عزم وأنصار

قم يا حسين فاطفيء كل مشعلة ... من الضلال تلظى زندها الواري

عجل لهم قطعهم خزيا إذا حسروا ... عن أوجه سفرت سوداء كالقار

مدوا بأيد تخط البطل فاندحروا ... قهراً أمام متين الايد قهار

لولاك لانغمست في الكفر ناشئة ... كادت تضل بجحاد وكفار

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سر في طريقك وادمغهم بمحرقة تبقي ندوبا ذات آثار
مستضعفون إذا ذلوا فان قدروا جاءوا بمكر خفي الكيد كبار
شريعة الله والمختار هازئة بمفترين على الاسلام أغرار
مستشرقين أثاروا نقم حملتهم حتى كأنهم طلاب أوتار
يخفون تحت ستار البحث كيدهم وهم على دين قسيسين أحبار
قوم أحق بلبيس النعل مشركة ولبس منطقة شدت بزنار
تعصب وأكاذيب ملفقة من مقذعين وقح النقد أشرار
ما بالهم نقدوا القرآن وانصرفوا في نقدهم عن أصاحيح واسفار
واجهل الناس من يبني عقيدته على شفا جرف من زيفه هار
وكيف تطلب منهم رشدة وهم في الدين عمي قلوب عمي أبصار
ان أبصروا الخير أخفوه وان ظفروا بالشر أبدوه في جهر وإسرار
والذين استباحوا البغي ساهرة مشبوبة الوقد من ناس وأحجار
في كل يوم ترى منهم أخا خطل يقول أذعن غير مختار
ضلت براعته في نفس باطله كما يضل السرى في ظلمة الساري
بشراه بالخزي في دنياه ممتطياً متن الضلال وفي أخراه بالنار
لا نضر الله داراً بات ساكنها ولا سقاها حيا وطفاء مدرار
إن كان للعلم تضليل وشعوذة فالعلم أقبح مدعاة إلى العار

« ● »

حسين هل لك في حمد يردده فم الزمان اذا أدلى بأخبار
كأنه باقة في روضة أنف شتى الازاهير من ورد ونوار
جادت عليها المزالى فهي زاهرة وكل ناضرة الاكمام معطار
قصيدة تضرب الدنيا بسنبكها فتنبه الذكر في بيد وأمصار

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أنى تسر تترك الآفاق مشرقة ... كالكوكب مستفيض الضوء سيار

ضمها بمرونك الوثقى معطرة ... كأنها وردة من ورد آذار

حسبي بمدحك أعلاء وتزكية ... فبالشريف تعالى شعر مهيار

جزاك ربك في آلائه نعما ... موصولة بعشي بعد ابكار

أعدك الدين للجلى إذا اشتجرت ... اعداد ليث قوي الزند زأر

دين من الله جلى كل واجبه ... يوم استهل بأضواء وأنوار

كالشمس ما أشرقت بيضاء مسفرة ... تختال ما بين أشراق وأسفار

وبعد فانظر الى نفسي وما احتملت ... من حاسدين لاهل الفضل أغمار

عمرت فيهم فضاعت مدة سلفت ... عددتها بينهم من شر اعماري

صدوا عن الشدو آذاناً مصلمة ... ليست تصيخ لورق فوق أشجار

ان أنكروك فلا تحزن فقد نكروا ... من قبل فضلك آياتي واشعاري

احمد نسيم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الاول

أسباب ونتائج :

يحدثنا التاريخ أن جزيرة العرب عامة ومكة خاصة ، لم تكن قبل الاسلام مستعمرة لأحد ، ولم يفتحها فاتح قط[1] وكان العرب مدى تاريخهم أحرارا

وكذلك يحدثنا التاريخ أن العرب قبل الاسلام لم تكن لهم ثقافة ، أو دور تعليم ، ولم تكن لهم مدنية ولا تاريخ مكتوب غير ما كانت تتناقله الألسن راوية عن راوية ، وتلك هي ثقافة الفطرة

ولم يكن للعرب هيئة اجتماعية ، أو نظام حكومي بالمعنى الذي نفهمه الآن . وجل تفاخرهم كان بانتصار قبيلة على أخرى ، أو بتحديها ، فكانوا أشتاتا من القبائل لا تجمعهم إلا ميادين الحروب أو أسواق التجارة او مواسم الحج

ومن البين أنه لم تكن هناك أية فكرة أو ظن بينهم لجمع شتاتهم وتوحيد مجتمعهم قبل الاسلام

ومن وسط هذه القبائل المفككة أو من أسحق الامكنة فيها سطعت أشعة الاسلام، وفي مدى عشرين عاما من حياة النبي العربي الكريم ﷺ ، تكونت أمة تشعر بوجودها الادبي وتقوم برسالتها في الأمم المجاورة ، فتكتسح المعتقدات البالية ، وتقضي على ملك الفرس والرومان وترثه

---

(١) مواقف حاسمة للفصل الاول لعنان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليس لهذه النهضة الكبرى ، والثورة الفكرية العظمى سوى مصدر واحد هو القرآن ، وأداة واحدة في تأدية الرسالة هي شخصية سيدنا محمد ﷺ ، ومهما يكن من الظروف التي ظهر فيها الاسلام ، وأحوال العالم في ذلك الوقت ، فان ظهور الاسلام من أجدب وسط في العالم ، ومن أوحش صحراء ، ومن أبعد الامكنة التي يظن أن العالم ينقذ على يدها - هذا كله - يعد معجزة لا شك فيها

وإذا كانت النهضة العربية ومصدرها الاسلام وحده تعد آية فان اكتساحها للعالم والمعتقدات وتكوين دولة ترث الرومان والفرس في مدى ثمانين عاما يعد سراً ليس من السهل أن يعود ، ومن المستحيل أن تجد له مثلا في التاريخ(١) خصوصاً إذا لاحظت أن هذه الثقافة الجديدة قد هضمت الدول كلها وطبعتها بطابع خاص هو الطابع الاسلامي

بل المثير للدهشة والعجب أن تظل هذه الثقافة الى الآن راسخة ثابتة رغم العواصف التي واجهتها ، والحروب التي عملت على فنائها

*
* *

والتاريخ يحدثنا عن تنازع البقاء الدولي بين الشرق والغرب ، ويصف لنا من الحوادث مدها وجزرها ، وكيف بسط الشرق سلطانه وساد ، ثم كيف قاومه الغرب ورده واكتسحه أو كاد

وعلى الرغم من كل هذه التقلبات ، فالاسلام دينا وقانونا وثقافة اجتماعية وأخلاقية ، ثبت لكل هذه الموجات والعواصف والتقلبات ثبات الصخر على الشاطىء ، فذهبت كلها بذهاب الزبد على سطح الماء

والواقع أن أعداء الاسلام لم تهدأ ثائرتهم ، ولم يفت في عضدهم بقاء الاسلام

(١) فتوحات الاسكندر وناپليون استغرقت زمنا يسيراً ولكنها ماتت بموت أبطالها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قويا مكينا على الرغم من الحروب والدسائس في البلاد الاسلامية التي أثاروها ، بل كان ذلك مما زاد المسلمين يقيناً وثباتاً واستمساكا بدينهم ومحافظة على يقينهم ، لأن الاسلام يحفظ القومية ، ويشعر الناس بواجبهم نحو أنفسهم ، ويجمعهم في دائرة واحدة من العاطفة ، ويوجههم كلهم إلى قبلة واحدة ، هذه القبلة التي تفنى ازاءها القوميات والشعبيات ويتساوى فيها الناس أجمعون من جميع الاجناس والأوساط

أضف إلى ذلك أن الاسلام هو أول مطلع للتفكير الحر ، والتحلل من قيود التقاليد ، وهو الذي يحث على الاسفار وجوب القفار والمشي في مناكب الارض ابتغاء الرزق . وهو في تعاليمه ينافي الاستعمار ، وينافي الخضوع لكائن من كان إلا للواحد الديان

وفضلا عن ذلك فان الاسلام عطف على الاديان الاخرى ، وطبع الشعوب التي انتشر فيها بطابع آخر هو الطابع العربي . فترى معتنق الاديان السابقة له والذين يعيشون في البلاد الاسلامية تجمعهم بالمسلمين رابطة الطابع واللغة ، ويعطفون على الاسلام بداعي العروبة ، والعروبة هي الطابع الثاني للاسلام لغير أهله . بما سنه من المعاملة الحسنة ومصاهرة أهل الاديان الاخرى وتقوية روابط الاسر ، ونشر روح الوئام بين الجماعات وكذلك اختلطت الانساب وتنوسيت ، ولكن الشائع في البلاد الاسلامية هو الاصل العربي سواء كان الشخص مسلما أو غير مسلم . فأصبح المؤرخون في حيرة من تسمية هذا الامتزاج وتلك الثقافة ، فطوراً يسمونها الاسلامية وطوراً يسمونها العربية

تلك حقيقة ، وذلك واقع ، ولم يخف عن الغرب ، وليس في حاجة إلى دليل وليس من المستطاع انتزاع تلك العواطف من أفئدة الناس ، وليس من الممكن استئصالها بحملة عسكرية ، أو انشاء محكمة تفتيش أندلسية جديدة لمحاربة آراء الناس ولغاتهم وضمائرهم وعلاقاتهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالمسألة كلها فكرية وعلمية ، ومحاربتها يجب أن تكون على أسلوب نشأتها: ثقافة وغزوة فكر

من أجل هذا نشأ الاستشراق في بلاد الغرب ، وأخذ جماعة من الغربيين يعكفون على لغات الشرق وتاريخه ودينه دراسة واستذكاراً وحفظا وتحقيقا وتغلغلا في البحث

هذا هو منبع المستشرقين ، وهذا هو مصدرهم ، وتلك هي الغاية التي يعملون لها .

والباحث في هذه الموضوعات لا يعدم موضوعا جديداً علمياً ، ولا يعدم كتابا قيما مدونا ، يعيد نشره ، ويحيي ذكره ، ليصبغ نفسه بصبغة العالم البريء ومنها اصطبغ اسم المستشرقين بصبغة علمية

غير أن النواحي الاخرى التي عكفوا عليها وهي غزوة الفكر الشرقي في قوميته ولغته ودينه كانت واضحة جلية في أعمالهم لانها الهدف الاول والغاية القصوى

والمستشرقون هم من أساتذة اللغات الشرقية في الجامعات وطلبتهم من أبناء وطنهم ، وهؤلاء الطلبة يعدون أنفسهم للعمل في المستعمرات في الشرق ، وكان لابد من المحافظة على قومية هؤلاء الطلبة . ولابد للعناية بتربيتهم أن لايكونوا أداة عطف على الشرق أو مصدراً لاذاعة محاسن الاسلام ، ولادراك ذلك لابد من تصوير الشرق بصورة بشعة قبيحة في أخلاقه وعاداته وآرائه ، ولابد من تصوير الاسلام في صورة منفرة ، وأن يكون هؤلاء الطلبة حربا على الشرق والاسلام .

كما لابد من أن يقوم هؤلاء المستشرقون بدورهم في تغذية جمهور أممهم بمثل تلك التعاليم بنشر مؤلفات يصفون الشرق فيها بصورة مشوهة . ويصمون الاسلام بكل المخازي التي هو منها براء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولذلك أصبحت الهوة بعيدة بين عواطف الغربيين والشرقيين ، وأصبح التفاهم أبعد منالا مما يجب

وقد تأثر الشرق نفسه بتلك الدعاية ، وكأنه من هذا التجريح والتشنيع شعر بضعفه أمام الغرب وألقى فريق من ضعفاء النفوس سلاحهم ، فاعتقد الشرقيون أنفسهم أن عاداتهم وأخلاقهم وقوميتهم وشعوبهم في مستوى أدبي وعقلي أقل من المستوى الاوربي ، وأصبح الشرقيون لا يثقون بأنفسهم في التفكير ولا في العمل الحر ولا في إدارة الاعمال ، وأصبحت تراهم إذا قرأوا في الجرائد أي جريمة عادية أو خبراً صغيراً ثاروا وقالوا إن ذلك مستحيل حدوثه في الغرب ، ولذلك أخذوا يقلدون الغربيين في كل شيء ، في المعنويات وفي الماديات

أما في المعنويات فقد شاهدنا اختلاط الالسن في الاسر والبيوت ، ونبذ اللغة القومية في الطبقات المتفرنجة ، وكذلك في الزي النسائي ، واستحالت الاخلاق ، وضاعت تلك المودة القويمة وصلة القربى ، وأصبح الشخص ينظر إلى أسرته المصرية الصميمة من أعلى إلى أسفل ، يحاول خدع نفسه بأنه غربي ، وأنهم شرقيون ، ورأينا تياراً جارفا من الادب الغربي يكتسح التفكير الشرقي والقومية الشرقية ، وانتشرت القصة المعربة ، وهي قصص لا تخرج عن معاني الحب الساقط ، وألفاظ الخنا ، وخيانة الزوجة ، وتهوس الشباب ، وسقوط المرأة التي يقابل الزوج زلتها بالعفو والصفح والغفران

كان هذا من أثر الدعاية أن العربية ينقصها أدب القصة ، فملأ المعربون هذا الفراغ بقصص لا تلتئم والشرف الشرقي ، ولا الغيرة الاسلامية ، ولا الآداب القومية . ثم هجم جماعة المبشرين على معاقل الاسلام ، مزودين بالمال والعلم والحال ، فأصبحنا نرى المخازي والاغراء والقبائح ترتكب باسم الاديان ،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأصبحت الاسرة الاسلامية يقتنص بعض أفرادها بالمال أو بالاغراء أو الاستهواء أو التنويم المغناطيسي باسم الدين . وترى ذلك متجلياً في دور التعليم الاجنبية ، وفي المستشفيات الاجنبية التي تحمل على بابها بالخط العريض انها بيئة ووكر للمبشرين في ثوب علمي شفاف . طرق لا يقرها عقل أو ذمة أو ضمير أو وجدان

أضف إلى ذلك أن كل بلد شرقي استعمر كان لابد له من طلائع تجوس الديار ، وتستكشف الآثار ، وتكتب التقارير

وكان لابد لهذا الجاسوس أن يلبس ثوب العالم بلغة البلاد ، وأن يصطنع بحث العلمي

وفي حالة دخول الجيش الفاتح لابد لقيام صلة بين الاهالي والجيش المهاجم والتاريخ يحدثنا أن هؤلاء كلهم من المستشرقين

أما في حالة السلم فلابد من وضع سياسة لمعالجة هدم الاسلام وتفريق كلمة أهله ، وإعداد النفوس لقبول التغييرات التي تدخلهم تحت النير

هذه مسائل علمية محضة ، ويقوم بها المستشرقون

فلتغيير الدين يجب أن يقال إن الاسلام دين مخترع ملفق ، ولهذا الرأي شيعة من المستشرقين ، وللسخرية من الاسلام يجب مهاجمة شخصية النبي الكريم ولهذا أيضا شيعة من المستشرقين

ولتفكيك روابط العرب يجب أن يفهم الناس أن العربية الفصحى لا تصلح لشيء . وأنها لغة قديمة وأن اللغات الدارجة أنفع منها

ولتفكيك روابط القومية والهيئة الاجتماعية الشرقية يجب أن يعزى كل شعب إلى أصله ، لان العرب لم يكن لهم فضل في ثقافة أو تاريخ

ولاضعاف الروح القومية وقتل الاعتماد على النفس يجب أن يفهم الشرقي أنه غير مؤتمن الجانب ، وأن الاختلاس غريزة فيه ، وأن الشرف بعيد عنه ،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأن بلاده وتربيته لا تصلح إلا للزراعة ، وأن عقله غير مكون تكوينا تجاريا ، وهذا كله ليحتكروا التجارة والصناعة ويتركوا للبلاد المستعمرة العمل الزراعي الشاق الذي لا يدر إلا الخير القليل

***

كل موضوع من الموضوعات التي ذكرناها تخصص لها فريق من المستشرقين وقد أصبحنا نعرف وجهة تخصص كل واحد منهم ، ويمكننا أن نعد أسماء المخصصين لكل موضوع من هذه الموضوعات كما سيمر بك في هذا الكتاب ، وكل هذه الموضوعات ذات مرمى سيء ، وليست من الحقائق العلمية في شيء ولذلك فان هؤلاء الناس قد ألبسوا موضوعاتهم الثياب العلمية ، غير أنه لم يتعرض لهم أحد بنقدها وإظهار مافيها من غش وخداع وتلبيس ، حتى إن كثيراً من القراء قد خدعوا بها ودخلت الحيلة عليهم

ولذلك يجب تحرير الفكر الشرقي من تلك الغزوة التي طال أمدها وسئمنا تكرارها ، ويجب أن نبرهن لهؤلاء الناس أنهم خادعون ، وأن الاخلاق الغربية لم تبلغ إلى الآن المستوى الشرقي ، وأن الزخرف البراق من المعاملة والاطلاء الخارجي للمعاملات المادية لا يغير الواقع فالبلاد الغربية كالبلاد الشرقية فيها أحط الاخلاق وأشنع الجرائم من كل نوع

وليس الفكر الشرقي بأقل في مستواه من الغربي ، وإنما في استغلال المواهب نتيجة التربية الاستقلالية التي امتاز بها الغرب ونتيجة لازمة للحرية الشخصية والمساعدة الحكومية التي حرمتها الشعوب الشرقية ، إلا أن أول دعامة في تحرير الفكر الشرقي أن يعرف أسرار استعباده فيقف دونها حائلا ، ويطلع على الصواب فيستزيد من مناهله ، ولا يقبل التغرير ، وأن يواجه هؤلاء المستشرقين بحقيقتهم وبعلم أن بضاعتهم مغشوشة ولأغراض غير بريئة ، وهي بضاعة زائفة صنعت في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

معامل التغرير ، ولذلك عمدنا إلى الرد على بعض المستشرقين في هذا الكتاب وجعلنا الرد في أسلوب علمي ليعرف القارىء الحقيقة

والذي دعانا إلى وضع هذا الكتاب هو تلك الحادثة المشهورة التي اضطرب لها عقلاء المصريين ، فانه لما صدر المرسوم الملكي بتأليف المجمع اللغوي الملكي بالقاهرة ، ووجدنا اسم فنسنك من ضمن أعضائه نشرنا شيئا من مباحثه ، ورددنا عليه ، وانبنى على ذلك خروجه أو إخراجه من المجمع اللغوي وحلول غيره مكانه ، وبذلك انفضح جانب عظيم من أعمال المستشرقين وحقيقتهم مما سيتجلى عند قراءة هذا الموضوع في الصفحات المقبلة

أضف إلى ذلك أن هذا المبحث الذي خرج من أجله فنسنك كان بعض الناس سرقه ونسبه لنفسه في كتاب ادعى أنه بحث في الشعر الجاهلي ، وبذلك اتضحت آفة أخرى من آفات المستشرقين هي أن بعض الناس من المسلمين يجارونهم في تفكيرهم ويقتبسون آراءهم بغير نسبتها إليهم ليقال إنهم من العبقرية

وفوق ذلك فقد عثرنا على بعض سفسطة المستشرقين من أن محمداً كان على علم بالاديان السابقة وأنه اتصل في سياحته للشام بأهل العلم مما دعاه إلى وضع قرآنه وتلك الفرية قد اتخذت سبيلها في التفكير الشرقي ورددنا على ذلك في حينه كما سنزيده شرحا في الفصول القادمة

والخلاصة أننا نريد تنبيه الناس إلى طلائع الاستعمار . ومصدر تغذية المبشرين وأدوات أذلاله الشعوب الشرقية وتفريقها . وتشتيتها . ونثبت أن هذا كله من المستشرقين .

ولا ندعي أننا ندافع عن الاسلام بهذا الكتيب . فنحن أهون أن تكون لنا هذه المنزلة الرفيعة . ولكننا نريد أن نهتك سترهم ونظهر حقيقتهم دفاعا عن قوميتنا . وعقولنا . وقديماً قال عبد المطلب أما الجمال فسأدافع عنها ، وأما البيت فله رب يحميه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثاني

محمد قبل البعث

من البين أن مجيء القرآن، وأثره في النهضة الفكرية العالمية كما رأيت - مسألة مدهشة حقاً.

وقيام شخص واحد هو سيدنا محمد ﷺ بهذه الدعوة الناجحة التي اكتسحت العالم مسألة موجبة للحيرة ومعجزة بلا مراء

والمستشرقون يقفون أمام هذه الحقائق ذاهلين، ويحاولون الدخول إلى هذا الصرح العالي من باب التشكيك والتضليل. أو باب الاستنباط والقياس.

والتاريخ يعلمنا ويعلمهم أن حياة العظماء لها طريقة في البحث والدرس ولها طريق مألوف وهو الابتداء بدراسة الوسط الذي نبغ فيه الرجل العظيم والظروف المحيطة به. ثم دراسة طريقة انتزاعه السلطة أو قيامه على قيادة الأمة.

ثم يأتي بعد ذلك دور تكوين الشخصية وأثر الثقافة المحلية والعالمية في نفسه وأثر هذه الثقافة في أعماله.

وقد أرادوا أن يطبقوا كل هذه النظريات والمباحث على حياة النبي الكريم ﷺ كما يدرسون مثلا حياة نابليون والاسكندر وغيرهما.

وأول ما صادفهم من الخيبة والفشل أن الوسط الذي عاش فيه سيدنا محمد ﷺ كان وسطاً فطريا ساذجاً. ولكن هناك في محيط ذلك الوسط وجد بعض النصارى واليهود.

ووجدت ظروف بسيطة في حياته ﷺ من سفره مرتين إلى الشام يمكن أن يبنوا عليهما القصور العالية من الأوهام

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا بأس من أن يجملوا من هاتين المسألتين ـ وجود نصارى ويهود في الحجاز وسفره إلى الشام مرتين ثانياً ـ موضوعا للتشكيك والتضليل

وذلك نقتبس لك أسهل طريقة وأبسط تضليل من كتاب درمنجهام الذي نشر في السياسة الاسبوعية ورددنا عليه لانه كان أول مثار للبحث (١)

(والواقع أن محمداً منذ الساعة الاولى بل قبل أن ينزل عليه جبريل بالوحي كان أشد ما يكون نفوراً من الوثنية التي نشأ ونشأ أهله من قريش فيها وأشد ميلا لهذه المعاني الروحية التي يتحدث عنها النصارى واليهود من أهل الكتاب في أنحاء شبه جزيرة العرب ممن كان يتصل بهم في أثناء ذهابه إلى الشام وإلى اليمن في القوافل قبل أن يقوم بتجارة خديجة وبعد أن قام بها

وهذه المعاني الروحية في اتصالها بنفس محمد ﷺ المتوثبة منذ صباها للكمال هي التي دفعته إلى تحنثه بغار حراء شهراً أو أكثر من شهر

ان الله تعالى رضي للناس الاسلام ديناً مع بقاء الاديان السابقة . للقرآن وحده مندمجة في هذا الكمال الروحي ـ أي الاسلام ـ اندماجا أشار اليه القرآن في قصص أصحاب هذه الاديان وما جاءوا به من الحق من عند ربهم وأشار اليه حين أراد أن يثبت محمداً ﷺ في أمر ما جاءه كما جاء في سورة يونس (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)

وفي هاتين الفقرتين ملخص لآراء المستشرقين الذين يظنون أنفسهم أهلا للبحث والاستنتاج دون أن نرميهم بشيء من سوء النية . ولعل ذلك أهدأ أنواع ضلال المستشرقين

ولما تسربت هاتان الفقرتان في الصحافة المصرية وعلى أيدي باحثين مسلمين

(١) طبع باسم حياة محمد للدكتور هيكل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رأينا توضيح هذه الطريقة واظهار ما فيها من خطأ في تطبيق ما يقال عن عظماء الغرب على حياة نبي عربي عاش في بيئة خاصة وفي محيط لا زال يتمسك بعاداته وأخلاقه إلى اليوم.

ولسنا نتهم هذا الرأي بأقل من أنه استنباط غير موفق ورأي خاطىء نتيجة الجهل والخطأ في الحكم

فأنت ترى من هاتين الفقرتين أن سيدنا محمداً تعمق في درس الأديان وتلقى مبادئها على الرهبان في سياحاته وأن ذلك العلم هو الذي دفعه إلى التحنث.

أما أنه خالط الرهبان وتشبع بمبادىء الاديان السابقة فذلك ظن ليس له من مؤيد ولو أنه كان كذلك لكان في كل عمل من أعماله دليل على ذلك وقد أحصى القرآن الكريم كل ما وجهه أعداء الاسلام وأعداء محمد ﷺ له من التهم ومنها الكذب والسحر والشعر. وكل ماشئت من صنوف السب والشتم والتهكم والضرب بالحجارة والتحدي للقتال كل هذا قيل ولكن واحداً منهم لم يجرؤ أن يقول له انك تعلمت هذا العلم على فلان. ولو كانت هذه الجملة قيلت لكنا على الاقل وجدنا عليها رداً في القرآن

ولو أن نفس محمد عليه السلام اعتنقت دينا أو مالت لأي دين قبل الاسلام لوجدنا لذلك أثراً واضحا في الحديث وقد سأله الناس كل أنواع الاسئلة بلا خجل وكان يرد عليهم بالصدق والأمانة التي اشتهر بها. ولم يرد ما يؤيد هذا الزعم ولذلك استنبطنا وكنا محقين في هذا الاستنباط أنه عليه السلام كان خالي الذهن من جميع الاديان وأنه اشتق طريقا في العبادة لنفسه كما سنبين ذلك في التحليل النفسي لحياته

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما الرحل والاسفار في التجارة أو مع عمه فقد كانت رحلته(١) الاولى مع عمه إلى الشام وهو ابن تسع سنين ولم يكن هناك مجال ما لتلقي هذه العلوم فليس ثمة جامعات وليس للرهبان حلقات درس كما أنه لم يكن يومذاك جماعة من المبشرين الذين نراهم اليوم يغررون بالناس ، وكل ماحصل من الراهب بحيرا أن تنبأ لهذا الغلام بمستقبل ديني وتوسم فيه استعداداً خالصا لهذه الرسالة الكبرى

والرحلة الثانية كانت وهو ابن خمس وعشرين من مكة إلى بصرى ومدة هذه الرحلة كانت ثلاثة أشهر

إذن فلنمش في هذا الطريق نفسه ، ولنر ولنستنبط مايمكن استنباطه ، ولنتعرف عادات العرب وأخلاقهم

فأول ظاهرة خفيت عن المستشرقين من عادات العرب أن صغارهم لا يجالسون كبارهم ، ولا يمكن شاب حديث السن أن يجلس في مجلس الكبار ولا يناقشهم ، ولا يباح له أن يتحدث في مجالسهم

ولم يخبرنا التاريخ أن محمداً ﷺ شذ عن هذه القاعدة ، وهذا دليل على أن كبار الرهبان وغيرهم لم يكن لهم من وسيلة لقلب عقيدة هذا الفتى كما يفعل المبشرون من أذناب المستشرقين في هذه الايام

وأما الرحلة نفسها فيجب أن نلم بعمل التاجر الذي تكون مهمته من نوع عمل سيدنا محمد ﷺ ، والعادة الجارية في بلاد العرب إلى يومنا هذا هي أن يقوم التاجر ببضاعته حتى يصل إلى المدينة التي سيبيعها فيها

ثم يذهب إلى منزل وسيط التجارة فيمكث في منزله بضعة أيام حتى يصرفها الوسيط ويعطيه الثمن ثم يعود قافلا

---

(١) تحقيق الطريق ومسافته وعادة العرب هذه رجعنا فيها إلى فؤاد باشا الخطيب وزير خارجية الحجاز سابقا ورئيس ديوان شرق الاردن الآن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فعمل التاجر في هذا السبيل ينحصر في المحافظة على التجارة في أثناء الطريق ومساومة الوسيط وحمل الثمن إلى أصحاب البضائع

والمسافة بين مكة وبصرى تقطع على ظهور الابل في نحو أربعين يوما ذهابا ومثلها إيابا ، ومدة إقامة التاجر في بيت الوسيط هي المدة التي تبقى من ثلاثة الاشهر التي قضاها سيدنا محمد (ص) في تلك الرحلة

فالوقت كله يقطع في الطريق وكانت رحلة واحدة ، فأي عقل إنساني أو غير إنساني يمكنه أن يستنبط أن سيدنا محمداً يمكنه أن يتعلم كل ما أتى به أو كل العلوم التي وردت عنه في وقت كهذا ؟

وأي سخف أدعى للسخرية من مثل هذا الاستنباط الملفق القائل أن سيدنا محمداً في أسفاره تعلم من الاحبار

أضف إلى ذلك ما استنبطه فريدرك شولتهنس عندما جمع ديوان أمية بن أبي الصلت وطبعه سنة ١٩١١ (١) وأظهر في مقدمة هذا الديوان مقدار مابذله من الجهد في جمعه من كتب السير ومن شوارد أخبار الكتب ورأى أن أمية هذا كان قد ترهب ولبس المسوح ونظم قصصا مصدرها التوراة والانجيل وكان يطمع في النبوة إذ أشيع وعرف أنه سيبعث نبي في زمنه

وبعد ذلك بعث محمد عليه السلام . وأخفقت آمال أميه فناوأ الاسلام وجاهر بعداوة نبيه .

ليس في الامر غرابه فليس أمية بأول رجل في مكة أو بلاد العرب عرف شيئاً عن التوراة والانجيل وليس هو أول من عادى الاسلام والتوراة والانجيل والقرآن بين أيدينا شاهد بذلك وفي هذه الكتب توافق في بعض النواحي التاريخية واختلاف في نواح أخرى فليس من المستغرب أن يعرف شاعر عربي

(١) أدب اللغة العربية لمحمد هاشم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شيئا عن التوراة والانجيل وينظمه شعراً ولكن المستغرب حقا أن يقول شولنهنس هذا إن محمداً عليه السلام استقى تلك المعلومات من الصدر نفسه الذي استقى منه أمية .

وليس أدل على الجهالة والتضليل في هذا القول وعلى التعصب الاعمى وقلة الخبرة من أن القرآن ليس بقصصه ولكن باحكامه وبقانونه وبأعجازه ، وبأثره الاجتماعي والفكري . فهل اجتمع كل هذا في احد ؟ كلا . ولكن مستشرقاً يظن نفسه في منزلة عليه يطلق لنفسه العنان ويصدر الاحكام فيتلقفها طاعن من طاعن ومبشر عن مستشرق للتشكيك في مصادر القرآن

ولو طاوعنا هؤلاء فيما زعموا ، وبحثنا عن كل حكم من احكام القرآن ومصدره ورأينا حكما منها من السند والآخر من الهند والآخر من فارس ومن مصر ومن أثينا وروما لزم لهذا النبي الكريم آلاف الاسفار والاشتغال بالجامعات عدة قرون قبل أن يأتي بكتاب لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

مثل هذا التفكير المزري يقول به المستشرقون وتهضم عقولهم أن محمداً أتى بما أعجز الانس والجن في سفره الى الشام ثلاثة أشهر منها ثمانون يوما ذهابه وإيابا وعشرة اقامة

ولكنها طريقة من طرق التشكيك وضرب من الهوي لا نشك أن القارىء عرف مغزاه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثالث

التحليل النفسي لحياة محمد قبل البعث

نحن ننكر إنكاراً تاماً أي أثر للأديان السابقة للاسلام في نفس سيدنا محمد ، وسواء سمع بها ورآها أو خالط أهلها وتعرف بهم ، فان ذلك لم يترك في نفسه الشريفة أي أثر ، ولم يعلق بذهنه من مبادئها وتعاليمها مايجعله يفكر فيها أو يفضل أحدها أو يقلدها

وليس أدل على ذلك من أنه لم يرد في القرآن الكريم الذي أحصى كل التهم التي وجهها أعداء الاسلام لنبيه الكريم مايؤيد هذا الزعم(١)

ومسألة التحنث في الغار والطواف بالكعبة وتوزيع الصدقات هي نوع التعبد الذي كان يتخذه عليه السلام قبل بعثه

فاذا قلنا إن التحنث في الغار له مايشبهه في الأديان الاخرى فالطواف بالكعبة لاعلاقة له بأي الدينين النصراني أو اليهودي الذي يتعمل جماعة المستشرقين الاسباب ويخترعون الوسائل للقول باقتباس الدين منها

وقد طبقنا حياته الشريفة على علم النفس الحديث لنتعرف أي سبب دعاه إلى هذا النوع من العبادة إذا صرفنا النظر عن العامل الالهي الاكبر في توجيهه إلى هذه الوجهة

ولكي يمكن فهم هذا الموضوع سنقدم للقارىء مقدمة وجيزة في علم النفس والتحليل النفسي لكي يتفهم معنا تطبيق حياته على علمي النفس والوراثة

(١) بل وجد فيه وصفه بالأمي ووصف قومه بالأميين ، ووجد فيه (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون)

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد قسم فرويد العقل ثلاث مناطق

١ — العقل الظاهر . أو الواعي . أو منطقة الوعي

٢ — الذاكرة

٣ — العقل الباطني . أو غير الواعي . أو منطقة اللاوعي

فالعقل الظاهر أو منطقة الوعي تحتوي الاشياء التي يدركها العقل في وقت معلوم ، وهي التي تهيمن على الانسان في حالة صحوه وعمله

والذاكرة تحوي الذكريات الماضية أو مامر على الانسان أو حفظه

والعقل الباطني يحوي الاشياء الممنوعة من الظهور بوساطة الرقيب العقلي وفيها جميع الغرائز الموروثة ورغبات الانسان التي تدفعه إلى رغباته المتعددة ولكن يمنعها من الظهور قوة حاجزة تسمى بالرقيب ، لان كثيراً من رغبات الانسان لا تتفق و لوسط الاجتماعي

والغرائز الموروثة في الانسان تتجلى فيه من السنة الثانية من عمره باظهار رغباته ككل الاطفال ولكنه يجد المقاومة لتلك الرغبات من الوسط المحيط به والذي يختلف باختلاف السن والوسط

فان الوالدين أو المربين والاساتذة هم الذين يتولون ارشاد الطفل في مدى سنيه الاولى وبذلك يبتدىء التصادم بين غريزته الاجتماعية والغرائز الاخرى كالبهيمية والانانية، فبطبيعة الحال يصبح مضطراً (حبا في استمرار الالفه بينه وبين المجتمع) إلى اتباع خطة مواجهة للواقع فيتنازل قهراً عن الاشياء التي يريدها هو ويستهجنها الناس .

ومن العناصر الاساسية لنظرية فرويد أن الرغائب والميول التي تقمع وتبعد الى العقل الباطني أو غير الوعي لا تمحى بل تبقى حية ولها أثرها في حياة الشخص وتؤثر تأثيراً واضحاً من مظاهر الوحي بطريق غير مباشر فاذا كانت هذه الغرائز

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المقموعة سيئة أمكن تهذيبها بالقوة الدافعة المرافقة لتلك العناصر الفطرية التي في العقل الباطني وتوجيهها إلى طريق نافع يساعد على تقدم الشخص ويكون تأثيرها في الوعي نافعاً . هذا ما يحصل في الاحوال العادية ولكن لنقص في التربية وخصوصاً المنزلية قد لا يحصل التهذيب في تلك القوة الدافعة وقد تستعمل في الاضرار بالتطور العقلي من الطفولة إلى المراهقة، مثال ذلك إذا تعلق الطفل بوالديه — خصوصا اذا كان وحيداً — فيكبر وليس لديه أي اعتماد على النفس وتكون النتيجة رسوخ هذا الميل عنده فلا يقوي على احتمال صعوبات الحياة وحده فاذا اضطر الى ذلك اضطراراً أصابه الحنين وكانت عملية القمع — أو تخفيف لوعة فراقه — مسألة شاقة ومؤلمة وذلك لأنه بعد أن تعود الاعتماد على والديه يرى نفسه قد كبر وأصبح في سن خاصة لا تتفق ومركزه وكرامته أن يكون عالة ويتسبب عن ذلك ظهور أعراض مرضية في العقل الظاهر كالبكاء والحزن

وكذلك قد تصيب الشخص في حياته وهو صغير صدمات مؤلمة يضطر إلى قمعها في العقل الباطني ولكنها تبقى فيه طول الحياة، وقد تظهر أعراضها في ظروف مختلفة إذ لم يستطع الرقيب قمعها تماما فاذا فشل الرقيب في قمع هذه الصدمات عاما ظهرت بشكل أفكار تجول في خاطر الشخص أو اعمال لا فائدة منها

هذه مقدمة سطحيه جداً في علم النفس يمكنك أن تتفهم منها النتيجة الباهرة التي وصل اليها فرويد وهي أهمية الغرائز في احداث ظواهر عقلية خاصة في تصرفات الشخص في الحياة

وبنظرية العقل الباطني وأثره تفسر الاحلام وتحلل نفسية الاشخاص، ومهما يكن من تنافر الآراء بين علماء النفس فان الجميع (فرويد ويونج واولر) يعترفون بأن العوامل الخلقية والوراثية لها كل الاثر في الامراض النفسية . وكفايات الشخص

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أما قوانين الوراثة فلم يوضع لها إلى الآن حدود وقواعد ثابتة يمكن تطبيقها بسهولة . وهي وان كانت تفسر لنا الأحوال النفسية التي بين أيدينا الا أن اختلاف طرق الوارثة في سلالة واحدة لا زال محتاجاً إلى تفسير وشرح كأن يكون الاخوان الشقيقان مختلفين في الأخلاق .

الا أن ذلك لم يمنع المشتغلين بتأصيل الحيوان من تتبع سلالة الهجين وامكانهم أن يستخلصوا منها بالتناسل سلالة نقية . فانه من الممكن ومن الامور العادية جداً أن تحصل على جواد عربي أصيل من أم وأب هجينين بتقوية الدم العربي في كل سلالة وذلك بانتقاء الأقرب إلى الأصل الذي تريده

هذه مقدمة لبحث التحليل النفسي لحياة سيدنا محمد قبل البعث، وسترى أنه يستنبط منها أنه كان في ذاته وشخصيته وحدة كمال مستقلة ولم يكن في نفسه أي أثر للاديان الأخرى وانه كان نسيج وحده .

فقد رأيت مما شرحناه لك أن العوامل النفسية في العقل الباطني هي الغرائز النفسية الكامنة أو التي قمعت وان لها أكبر الأثر في تصرف الشخص .

فلنطبق ذلك على حياته الشريفة .

فسيدنا محمد كان يعيش في وسط عبادة الاوثان . أو ما تقدم الاسلام من الاديان، فكانت هذه هي القاعدة الاساسية في المجتمع الذي كان يعيش فيه ، فاذا كان محمد ﷺ قد ورث في نفسه عوامل نفسية تحرضه على كراهيتها كان له أن ينتقم أو يعبث بها ،ولكن عمليات القمع بوساطة الرقيب العقلي وغريزة الاجتماع وآداب العشرة نهته أن يعادي الناس ،فماذا كان شأنه مع نفسه؟ هذا ما سوف ننتظره من نتيجة التطبيق العلمي على ما أثر من حياته الشريفة في كتب السير المعتمدة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحمل و الطفولة

إن سلسلة نسبه الشريف تنتهي الى اسماعيل وابراهيم من جهة الوالدين وهو نسب معرق في النبوة . والعمل على تطهير العقائد . وسئل النبي عن نفسه فقال — أنا دعوة ابي ابراهيم — (ابن هشام ص ١٥٥)

ونسبه صلى الله عليه وسلم بانتهائه الى اسماعيل وابراهيم ونوح المعترف بنبوتهم من الاديان الاخري يجعلنا نطبق قوانين النفس والوراثة الاخلاقية على شخصه الشريف . ولو كانت قوانين الوراثة واضحة تماما ومحدودة في حدود علمية تامة — لكان في تطبيقها أكبر لذة علمية . ولكن الناس يعرفون منها اليوم قوانين ونتائج لاشك في صحتها فيقولون عن السبع أنه يموت عطشا ولا يلغ من ماء ولغ فيه الكلب .

ويتقلون عن أبناء الملوك المعرقين قصصا طويلة ونوادر عن الانفة واحترام النفس فلا نتنظر من مثل ذلك النسب الا وراثة غرائز أرقي من مجموع مستوى الناس علي الاقل مما كان يتجلى في آبائه وأجداده . فانهم لم يشتهروا بالثروة والغني . ولقد ولد عليه السلام في إملاق ولكن آباءه اشتهروا بالشرف والنخوة وعرف عن أهله شدة المراس والصلابة فيما يعتقدونه حقا . ولم يرث عليه السلام من آبائه إلا شرف النفس . وهو ما نعبر عنه باللسان العلمي بالغرائز والالهامات الراقية العالية .

يدلنا علي ذلك أخلاقه قبل البعث ! وقار وحشمة . واحترام لنفسه ولم يرتكب زلة أدبية مما كانت تبيحه عادات الجاهلية . فلم يسكر ولم ينهب ولم يقتل الي غير ذلك مما كانوا يعدونه من ضروب الشهامة .

وكانت أخص صفاته احترام النفس والغير . فلم يعتد على أحد ولم يطلب عنده حق لغيره .

كان هذا قبل النبوة . وقبل أن توجد عداوات وحزازات . شهدت بها وفود أعدائه عند ملك الروم .

وهذا أرقى انواع الغرائز والالهامات .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولنتمش قليلا بعد ميلاده . فنراه ولد يتيم الأب ولم يلتصق بأمه بل بعث به الى الصحراء .

مسألة غريبة في هذه الحياة الحافلة . فقد علمت ان الالتصاق بالوالدين فيه مضيعة للاعتماد على النفس . وفيه معنى من معاني الرخاوة في الطباع وقد يكون في الالتصاق باحدهما مفسدة للأخلاق .

ولقد تيتم من أمه طفلا فلم يكن له أمل في الاعتماد على أحد من الناس اعتمادا قد يقلل من عزمه . أو يفسد من طباعه

ولننظر الي اليتم وأثره في النفس .

أنا شخصيا جربت ذلك ،فقد ولدت يتيم الأب وفي كفالة الأم وقد أورثني ذلك عوامل نفسية مؤلمة . ما تحدثت بها الا أمضني الحزن والألم .

ان أول ما يشعر به اليتيم متى شب هو الاقرار بالواقع والاستسلام للقضاء والقدر. والرضا بما قسم له من نصيب محزن . لفقدان عطف الآباء . والمرشد الخبير في أوقات حرجة من ظروف الحياة التي تحتاج الى قرار حاسم من مطلع خبير . ويكون الدافع النفسي موجها الى الخضوع والوحدة . لا الى حب السلطان والمظهر البراق . كما تتعود النفس الخشونة وعدم العطف. فلا يتعود اليتيم التدلل ولا المرح وهما اهم خواص الطفل في سن الصغر ،وذلك كله نتيجة الاخفاق في اشباع رغبات الطفل . والفشل المتوالي في نوال كل شيء يتلطبه أو يتطلع اليه.

أضف الى ذلك نوعا من الشفقة المؤلمة ، ونوعا من العطف أقتل للنفس من العقاب الصارم ، ذلك هو الحنان الذي يستجدى كأنه حسنة أو نافلة ، اذ ترى قوما يظنون انفسهم على شيء من حسن الصفات يعطفون على اليتيم عطفا هو اشبه بالصدقة منه بالعطف ويشفعون عطفهم بالاشارة الى انهم فعلوا ذلك ليتم الشخص .

دعيت مرة الى مهرجان زواج ،وانا غلام صغير فوزعت الحلوى على الرجال

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والحنان وكان كل والد يحضر لنجله نصيبه من الحلوى ، وخرجت من الاحتفال وليس معي غير دمعة تترقرق، فلم أصب من الحلوى قليلا او كثيرا ، ولم يلاحظ اخفاقي انسان ، فآليت على نفسي بعدها ان لا أذهب الي مهرجان (١)

وتوفيت احدى قريباتنا وانا غلام ، وكانت تحبني لقرابتها من المرحوم والدي وكنت في نحو العاشرة من عمري ، فانسللت وحدي من المنزل لامشي في جنازتها اعترافا بهذا الحنان الذي كانت تظم ه نحوي ، وبكيت عليها كثيرا لانها ما كانت تراني حتى تذكر والدي وتبكيه ، وكانت هذه السيدة أصيبت بشلل ، فكانت تهتز في بكائها الى درجة اني كنت اشعر أن نوبة اغماء تعتريها فاذا افاقت قبلتني فيتبلل وجهي من دمعها

رأيت وفاء لها ان أسير في جنازتها وان اشيعها الى مقرها الاخير بتلك الدموع التي أرهقتها لذكرى أبي

ودفنت ، ووقفت على قبرها أبكي ، وكنت ألاحظ ان الناس ينصرفون في مركبات أعدت لهم ولم يدعني انسان لمركبته ، وبعد قليل ، وكانت الشمس قد قاربت المغيب ، وجدتني وحيدا بين المقابر ، لم يعرني أحد اهتمامه ، ولم يسأل عني سائل

هناك عرفت ان لا نصير لي في الدنيا ، ولا من يسأل عني ، وضربت يدي الى جيبي فوجدتني خالي الوفاض ، فافترشت الارض انتظر ما قدره لي الله لولا ان أسمعت بكار له حمار أعرج ، يسوقه امامه وسط القبور ، وهو يغني بصوت مبتهج فوصاني الى البيت على أجر اتفقنا عليه

---

(١) ولعل أمثال هذه الحادثة هي التي جعلته عليه السلام يرضى بالواقع فلم يذهب الي سمرولم يحضر ناديا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بعد تلك الحادثة لم أكن اذهب الى مكان الا بعد ان أفكر في طريق العودة وحدي

هذه العوامل كلها تورث في الطفل شيئا كثيرا من الحسرة والاعتماد على النفس ، وتعلمه الحياة ومعناها وهو طفل فيعوض بنفسه ما فاته من عون والده ولذلك لم أشك في رواية بحيرا حين قال عن النبي ﷺ (ما ينبغي لهذا الغلام ان يكون أبوه حيا) لان مثله يجب ان يكون أستاذ نفسه ولا فضل لاحد عليه .

على ان هناك عاملا نفسيا قويا يختلج في نفس اليتيم وهو ذلك الشعور الذي يتولاه بانه ضحية القدر وانه بريء مظلوم في العالم ؛ فقد مرح الطفولة وابتسامتها العذبة ، ومروورها المستمد من عطف الوالدين وارشاد الوالد . فينظر الى العالم بالمنظار الاسود ، ويفكر في الانتقام من العالم لو استطاع الى ذلك سبيلا

هذا سر من اسرار بعض النفوس ، فغريزة التخريب والهدم كامنة في النفس ولكن عوامل الضعف قد تكبر هذه الغرائز ولا يجمحها غير التربية والوسط ، ولم يكن محمد ﷺ في وسط يساعده على تكوين نفسه ولكن الظروف هيأت له ان يكون رقيق القلب وكأني بهذه الظروف ليست بنت المصادفة ولكنها إلهام وتوفيق من قدرة أقوى ، فكيف تهذبت نفسه وكيف صار بارا بالعالم والفقراء واليتامى . وكيف استطاع ان يعرف نفسه وكيف تربت نفسه على العظمة ، ولم تفقد كبرياءها مع اليتم والاملاق

ان (نشأته راعي غنم) هي السر في انتصاره على افكار ثورية تمليها الطبيعة البشرية وغرائز الهدم والتخريب وشعوره بظلم الحياة بفقد والديه

فلما كان غلاما تحمل مسئولية رعاية الاغنام التي هي مضرب المثل في الوداعة ، وهي لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا . وهي أحوج ما تكون لرعايته

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من الذئب الذي يهاجمها

، ولقد توفرت في هذه الصناعة كل العوامل التي يحبها اليتيم كما أسلفنا من العزلة عن الناس اتقاء ما يصيب اليتيم منهم من اهمال وعدم عطف والزهد والاعتكاف حتى لا تتأثر النفس بضعفها في الحياة . فهي نوع من التربية النفسية لنمو غريزة المسئولية ورعاية الضعيف والعطف على الوداعة . والشعور بالسلطان. والاعتماد على النفس

وان محمدا ﷺ ليشعر وهو يرعى الاغنام بانه ملك صغير له رعيته وعليه واجبه . وأهم هذا الواجب هو حمايتها ، من الذئب أو من اللص ، وهو في أثناء ذلك يمشي في الارض ويفكر في الطبيعة بين السهل والوادي، والجبل والصحراء، يبحث عن رزق أغنامه ورزقه ، أليس ذلك يصرفه عن البطش بها ؟ أليس يعرف انه مسئول عن ضياعها ؟ اليست هذه مسئولية تربى فى نفس كنفسه الشريفة كل تقدير للواجب وتعده أن يكون راعيا كبيرا ؟ يرعى الناس فيما بعد.

« ٥ »

حياته وهو غلام

في حياته عليه السلام أثر واضح للغرائز النبيلة ، وان عقله الباطني كان أنشط من عقله الواعي ، والهامه الطبيعي أشرف من الهامات الناس كافة

لقد عاش في وسط ليس للتربية القويمة أي أثر فيه . وقد يكون الوسط العربي في بلاد العرب اليوم مشابها له ، أي إن الغلمان لا يجالسون الكبار ، فلم يكن له فرصة التربية العملية تلقينا أو مشاهدة ، ولكنه كانت تربيه غرائزه الخاصة اذا صرفنا النظر عن القوة الالهية التى نعتقد انها كانت مشرفة على اعداده .

يتجلى لك ذلك في حوادث جمة نسوق لك منها حادثتين : الاولى ماذ كره

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن هشام وغيره نقلا عن الحديث الشريف :

لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان وكلنا قد تعرى وأخذ ازاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة فأني لاقبل معهم كذلك وأدبر اذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة(١) ثم قال : شد عليك ازارك، قال فأخذته وشددته علي ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وازاري علي من بين أصحابي

والحادثة الثانية هي الحادثة المشهورة اذ أراد أن يسمر بمكة وتمتمها كما جاء في قوله عليه السلام : فخرجت لادنى دار من دور مكة فسمعت غناء وصوت دفوف ومزامير فقلت : ماهذا ؟ فقالوا : فلان زوج فلانة لرجل من قريش فلهوت بذلك حتى غلبتني فنمت

فما هو التعليل النفسي لهاتين القصتين اذا صرفنا النظر عن العامل الالهي الاكبر ـ فان هذا الهاتف وهذه الكلمة هما نشاط العقل الباطن نشاطا غير معتاد نتيجة الغرائز الشريفة التي أخفاها الرقيب العقلي على حكم البيئة التي يعيش فيها عليه السلام ، فسمعه صوتا وشعر به لكمة وهذا كثير الحصول في الامراض العصبية اذ يرى الشخص أو يسمع أو يشعر بأشياء لا وجود لها نتيجة العقل الباطني وكذلك تعلل الحادثة الثانية بغلبة دافع السمر بغريزة الاقتصار والرضا بالواقع ، ومواجهته ، فشغل حتى نام

وليس هناك فرق بين العقل والجنون الا قوة الرقيب فاذا ظهرت الغرائز التي لا تلائم المجتمع سميناه ذلك مرضا ، واذا ظهرت الغرائز التي ترقي المجتمع وتسمو بالشخص الى منزلة رفيعة ومثل أعلى سميناه ذلك شخصية فذة وعبقرية، وعزونا ذلك الى الغرائز الشريفة الراقية التي لم يستطع الرقيب التغلب عليها بحكم لوسط ، فالوسط الذي كان فيه عليه السلام يبيح للاطفال تعرية سوءاتهم أما غريزته فكانت أرقى من ذلك ، ولذلك نشط عقله الباطني ونهاه عن العري

ويمكنك أن تؤول كل تصرفاته وهو طفل على هذا النحو فلا تجد هناك

(١) يظهر أن الرواية بالمعنى والا ففي استعمال وجيعة نظر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الا تعاملا واحدا وهو أن غرائزه كانت نبيلة غاية النبل مما اشتهر به من الامانة والكيانة إلى غير ذلك من جميل الصفات

محمد تاجرا

هذه الصناعة هي ألصق الصناعات باخلاق الناس ودراسة نفوسهم وافضل السياحات عظيم في تربية الشخص الخلقية . وقد ظهرت لك غرائزه في أمانته . ولنذكر الآن العناصر الجوهرية في هذا البحث وهي صلة محمد ﷺ بالاديان الاخرى وهل هي التي أثرت فيه في التحنث بالغار أم لا ؟ يقول لنا جماعة المستشرقين إن صلة محمد ﷺ في سياحاته بالاديان الاخرى عرفته الشيء الكثير عن تلك الاديان ودراستها ويخيل إليك انها كانت دراسة عميقة كدراسة الطالب الذي يتخصص في علم الطب والحقوق مثلا . ومثل هذه الدراسة لا بد ان يلزم الطالب فيها باب أستاذه مدة طويلة جدا من الزمن . توازي على الاقل مدة دراسة تلاميذ سقراط . ولكن ظهر لك انه لم يصرف في الرحلة الثانية غير ثلاثة أشهر منها نحو ثمانين يوما في الطريق . ويلوح لنا ان هذه الرحلة لم يكن الغرض منها سوى التربية النفسية . وتحمل مشاق السفر والمحافظة على الامانة التي عهد اليه القيام بها وهي توصيل التجارة والعودة بالثمن . كما بينا ذلك مفصلا في الفصل الثاني الذي مر بك .

ولقد ادعى درمنجام وغيره انه عليه السلام ذهب إلى اليمن ولم تؤيد كتب السير هذا الزعم . ولكنها أضيفت فقط للتهويل .

دين محمد قبيل الوحي

فلننظر ما ذكره ابن هشام ونستنبط منه دين محمد قبيل الوحي وهل تعبده له صلة بالاديان الاخرى أم لا ؟

لم يروا لنا أحد من المسلمين وأعداء الاسلام شيئا عن دين سيدنا محمد قبل الوحي بل كل ما قالوه هو انه ﷺ (ابن هشام صفحة ٢٢٤) كان يجاور في حراء في كل سنة شهرا وكان ذلك مما تحنثت به قريش في الجاهلية والتحنث لغة هو التحنث

www.alukah.net إحدى من شبكة الألوكة

وقال عبيد — صفحة ٢٢٥ — فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه فاذا قضى ﷺ جواره من شهره ذلك كان اول ما يبتدىء به اذا انصرف من جواره الى الكعبة فيطوف بها قبل ان يدخل بيته

هذا هو كل ما كان يفعله عليه السلام من التعبد قبل بعثه وانطبق ذلك على علم النفس ايضا .

لقد نشأ محمد عليه السلام في الجاهلية التي كانت تحترم الكعبة وقد اوجدت الظروف التي طرأت على بناء الكعبة فرصة انقسام القبائل على حمل الحجر الاسود فكانت فرصة سانحة له اعطته ميزة الفصل بينهم وان يكون رداؤه محمل الحجر وان يكون له ميزة وضعه بيديه الشريفتين بمكانه

فالهامات محمد ﷺ الطبيعية وغرائزه لم تجعله ينفر من الكعبة وهو يجهل ما سيكون لها من الشأن على يديه مستقبلا . وليس في التوراه والانجيل ما يدل على ان هذا هو بيت الله الذي بناه ابراهيم . فهو على حكم البيئة التي نشأ فيها لم يشذ عن احترام الكعبة . ولكنه نفر مما حوت من أصنام .مما كان المجموع يدين به

نقف هنا وقفة قليلة لنتأمل هذا الفرق الهائل بين احترامه للكعبة ونفوره من الاصنام .

فالكعبة كما رأيت لا تمت بصلة لليهودية ولا للنصرانية . ولكن العرب كانوا يحترمونها احتراما متوارثا وكانوا يعرفون أنها بيت ابراهيم

ولقد روى الكلبي في كتابه (الاصنام) أن منشأ هذه الاصنام هو شدة تعلق ابناء اسماعيل بالكعبة فكانوا كلما كثروا ورحلوا إلى جهة أخذوا حجرا من الكعبة ووضعوه في مكانهم الجديد وطافوا به تبركا

ثم دار الزمن بهم فعبدوا ما استحبوا ونسوا مكانوا عليه

فانت ترى من هذا ان احترام الكعبة موروث في ابناء اسماعيل ومنهم محمد ﷺ ولكنه نفر من الاصنام .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذا فارق كبير . وتاريخه عليه السلام يكاد يحوي كل صغيرة وكبيرة من تعبده . بل كان يسأل بعد الاسلام من كل شيء . ولم نجد في عمل من أعماله دليلا على اتصاله بالاديان الاخرى

ولكن هناك أمر واحد تمحك فيه جماعة المبشرين بعد أن غذاهم به فريق المستشرقين تلك هي القبلة الاولى وزعيم هذه الفرقة هو ستوك هرجرونيه وفسنك طريد المجمع اللغوي الملكي . وسنبين هذه الشعوذة عند الكلام عن هذا الرجل الذي وقفنا معه موقفا خالدا في هدم المستشرقين . على ان ذلك كان بعد البعث ولا شأن له بموضوعنا الآن . وعلى ان الاعمال الثلاثة التي كان يتدين بها قبل البعث هي المجاورة في الغار وإطعام المساكين والفقراء فاذا انتهى ذلك الشهر طاف بالكعبة سبعا

فهل هذه الاعمال تمت بالصلة لاي دين من الاديان السابقة ؟

إذا كان هذا التعبد ان صح تسميته بهذا الاسم مصدره الغريزة والالهام وحده فهو على حكم الوراثة من جده الاعلى ابراهيم واسماعيل قد شق له طريقا وحده

ولم يقل لنا المستشرقون ومن جرى مجراهم أنواع هذه الصلة التي قالوا عنها بل اكتفوا بهذا الوصم للتشكيك لاغيره والا فاني اتحدى من يقول بأن هذه الاعمال التي كان يقوم بها محمد ﷺ متخذة من الاديان السابقة اللهم الا دين الحنيفة دين الاسلام وملة ابراهيم ومحمد بغرائزه والهامه شق له طريقا وحده ولم يتشيع لدين ما قبل بعثه . وإلا لكان الكافرون من أهل زمانه حاجوه بما كان يعترف به أو يعمله وليس في القرآن إشارة ما إلى ذلك مع انهم حاجوه بكل انواع الحجج وطعنوه بجميع انواع المطاعن الا هذا . فهل ماخفي عن معاصريه اكتشفه المستشرقون في آخر الزمان . ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل الرابع

محمد ﷺ وروح الاجتماع عند البعث

رأيت في الفصل السابق ان دين محمد ﷺ وتصرفاته قبل البعث كانت كلها من منبع الغرائز والالهامات العالية

وقديما قال الحكماء ان السر في عدم انجابه ذكرا ان أي ولد يخرج من صلبه كان محتوما ان يكون في درجة من النقاء ينتقل بها إلى درجة النبوة. وموت أولاده الذكور كان قضاء وقدراً لانه ممد لتلك الرسالة العظمى التي ختمت به

ويقول لنا درمنجهام إن موت أبنائه قد زعزع عقيدة زوجته السيدة خديجة في الاصنام. وانى لنا بتقمص كلها خرافية جديرة بان نهملها (١)

والآن نقف وجها لوجه مع جماعة المستشرقين كلهم الذين كتبوا ويكتبون عن حياته كرجل عظيم. ونريد ان يتمشى معنا القاريء في هذا الفصل لنرى هل كان محمد ﷺ رجلا عظيما فحسب أم نبيا ورسولا؟ ولو جدت عبقرية عظماء الرجال في عصره وفي بيئته كانت تقوم بما قام به أم لا؟

رأى الباحثون من المؤرخين أن العالم كان في وقت البعث في حالة انحلال أدبي وسياسي عم معظم أنحاء الكرة الارضية

في الشرق كانت الصين والتبت تمزقهما الحروب الداخلية، والهند كانت

---

(١) يقول درمنجهام ان سبب زعزعة عقيدة السيدة خديجة في الاصنام انها كانت تقدم النذور والحلي لتلك الاصنام طلبا لحياة ابنائها الذكور من سيدنا محمد ولما لم تفلح هذه القرابين تزعزعت ثقتها وأغرت سيدنا محمداً بهدم كيانها

على أن الواقع ان أولاده الذكور كلهم ماتوا بعد الاسلام فلو كان استنتاج درمنجهام حقيقيا وينطبق على نفسيته عليه السلام لكان موت ابراهيم آخر انجاله سببا في ثورته عليه السلام على العالم أجمع. ومع ذلك فكل ما قال معاصرو النبي عند موت أولاده الذكور أن الله قلى محمدا فنزلت سورة (والضحى والليل إذا سجي ما ودعك ربك وما قلى)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في فوضى أخلاقية نتيجة انتشار المذهب البرهمي الذي يعد من أركانه هبة البنات الابكار للآلهة وأن يقوم البرهمي في دور الالهة في الاستمتاع بالعذارى مما لا يزال له أثر حتى اليوم ، وهبة البنات للاستمتاع الديني في المعابد ويطلق عليهن اسم فتيات المعبد

وكان شمال غربي آسيا في حالة ركود وغموض ، وشمال افريقيا في حالة يرثى لها من الظلم الفاضح على ايدى فلول الرومان التي فقدت سمعتها الادبية ولم يبق منها الا بقية أنفاس تتردد كما تتردد آخر انفاس المشرف على الموت

وكانت اليونان تعاني ما تعانيه بقية البلدان لتبعيتها للدولة البزنطية . التي كانت مشتبكة في حروب مع الفرس الذين كانت جنودهم تعيث في أرض الروم فسادا حتى انحلت أمة الفرس نفسها

***

ومن هذا يتضح لك أن العالم كان في غمرة انحلال أدبي وسياسي ومادي وأخلاقي ولا يمكن نجدته الا بقوة خارقة تهديه سواء السبيل، على أن العالم لم يكن خاليا من بذور الاصلاح فقد كانت اليهودية معروفة . والنصرانية لها بابوية روما . ومازال هذان الدينان منتشرين للآن. كما توجد انقاض المدنيتين اليونانية والرومانية .

هنا نقف بالقاريء قليلا لنستعرض الآراء التي يقول بها منكرو رسالة محمد ﷺ ونتمنى معهم قليلا في استنباطاتهم لنرى إذا كانت تهيء لهم مثل تلك الدعوى

قال المستشرقون ومن لف لفهم إن محمدا كان على اتصال علمي بالاديان الاخرى . وانه استقى معارفه ومعلوماته من سياحته في الشام وباحتكاكه بمن يحضرون إلى مكه للتجارة . وقد زاد الغامزون اللامزون بانه كان يحسن القراءة والكتابة (مرجوليث) بدليل الآية الكريمة (إقرأ وربك الأكرم)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وادعوا أن هذا اعتراف بانه كان يعلمها . وانه قرأ عن كل شيء.

إن تصديق مثل هذا الكلام فيه كل العبث بالعقل البشرى ، أما سياحاته في الشام فقد سبق عنها الكلام في الفصلين السابقين

وهناك رأي آخر يقول به بعض المستشرقين وهو أن محمدا كان يقتدي بموسى عليهما السلام وأن دعوته كانت لحب السلطان.

يقول هذا القول المستشرق مرجوليث في كتاب تاريخ العالم العام ونقول رداً على هذا إن غرائزه والهاماته كانت واضحة تمام الوضوح وتصرفات الشخص في صغره دليل على غرائزه وميوله . ولم يكن في غرائزه عليه السلام ما يؤخذ منه حب السلطان وحب المال والتملك أو غرائز الهدم والافساد وحب الظهور وهى أظهر الغرائز في حياة الاطفال الذين يرجى أن يكون لهم شأن في المستقبل بل بالعكس كانت غرائزه العاملة هى التواضع والوحدة وتفي الخلاف، ولم يعرف عنه انه استغل سلطانه في الاستفادة المادية وهي أهم ما يطمح اليه العظماء.

كذلك لم يشتهر بالشعر ولا بالدعاية لنفسه وهما أقوى المؤثرات في عصره وفي كل عصر مما كان يهيء له أن يجمع حوله جماعة الانصار يعدها العدة للمستقبل الذي يتهيأ له لو انه شخص ذو مطامع

هذان هما الرأيان السائدان في كتب المستشرقين وهناك رأي ثالث يستنبطه بعض المشتغلين بالفلسفة الحرة وهو أن محمداً عليه السلام كان على علم قليل بالاديان السابقة غير انه رأى أن العالم محتاج الاصلاح المعنوى والنفسي وان لا وسيلة لاصلاح المجتمع الا بهدم الخرافات والمعتقدات الزائفة فبدأ بالدعوة لهدم كل هذا

وانك لتجد في هذا الرأي أثراً واضحا للثقافة والتعليم الراقي، فاصحاب هذا الرأى ما حكموا هذا الحكم الا بعد الاطلاع على تاريخ العالم الذى لخصناه لك في أول هذا الفصل ثم درسوا المعتقدات التى كانت شائعة في ذلك العهد وكذلك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تعلموا الموازنة بين الاديان ثم درسوا التاريخ السياسي والاقتصادي للامم كلها حتى القرن العشرين ولذلك كان هذا الاستنباط لا بعد استنباط بل يعد تقريرا لما حصل . وليد الاطلاع على الاسباب والنتائج وهو تفسير لسر الدعوة التي قام بها الاسلام .

فهو كان يتسنى لرجل عاش في الجاهلية الاولى أن يعلم كل ذلك على غير معلم في صحراء جرداء قحلة ؟ وهل من الممكن لعقل بشري أن يسع كل هذا التحصيل والانتاج والتشريع وحده من غير معين من الاساتذة أو الجهابذة مع ما علمنا على النفس اليوم أن للعقل طاقة وللذاكرة احتمالات لا يمكن تجاوزها من غير أن يختل توزنها اختلالا عصبيا .

فأصحاب هذا الرأي يعرفون المقدمات والنتائج بجملها فينسبون له عليه السلام قوة لا يتسنى لاحد من البشر ادراكها في ذلك الوقت الذي بدأ فيه الوحي وهنا سر اختلال هذا المنطق — وهذا الرأي . ففرق كبير بين أن تدرك الامر من أوله وبين أن تعرفه بعد نهايته باربعة عشر قرنا . وان تعرف أسباب نجاح الدعوة وتضيف اليها استنباطا من عندك - بعد ان تقرأ كل ذلك في كتاب واحد مأخوذ من آلاف المصادر .

ولو أدت دعوة محمد ﷺ إلى نتيجة عكس ما ادت اليه لما عدم أصحاب هذا الرأي الف حجة على خطئها وعدم ثقافة الداعي لها مما سنشرحه فيما بعد .

وهنالك رأي آخر وهو على ما فيه من تهاون جدير بالذكر والتمحيص وهذا رأي أصحاب الفلسفة الحرة ايضا . وهو أن ليس لعظماء الرجال حاجة إلى التعليم وان اكثر العظماء لم يكونوا من المتعلمين بل يكفي للنجاح فكر صاف وقلب طاهر جبار وعزيمة صادقة واخلاص حر عميق وايمان ثابت

وانا لنقف برهة أمام هذا الرأي لنقلبه ونقف على كنهه لان نواحي عظمة

الرجال متعددة . فاذا صدق هذا القول عن رجل سياسي يقيم ثورة أو يهدم عرشا . او يفتتح دولة ، أو يستأثر بسلطة فانه لا ينطبق على صاحب دين أساسه قوة الحجة وسلامة المنطق ، ويتناول التاريخ القديم والحديث في زمنه فينفي ويثبت ويناقش ويجادل ولا بد لهذا كله من ثقافة واطلاع لا وسيلة للالمام بها

فاذا كانت الالهامات والاخلاص والايمان وحدها هي مصدر كل هذه المعلومات فانا لا نشك ان مسافة الخلف بين منكري النبوة والمؤمنين قد قربت إلى أدنى حد لان الالهامات التي تتحدث بالغيب وتعلم المجهول وتحيط بتاريخ الاوائل والاواخر وتنفي وتثبت بطريق القطع والصواب هذه الالهامات هي فيض من قبس الرحمن ورسالة من الملأ الاعلى

وليس الصدق الصرف والاخلاص الحر والايمان الثابت الذي لا يتحدث به صاحبه ولا يكتسب به شيئا من حطام الدنيا بل احتمل مرارتها لهداية البشر وانقاذ الانسانية — ليس ذلك كله — الا مرتبة من مراتب النبوة .

وهناك مسألة جديرة بالنظر والتفكير وهي أن الاسلام ليس للزهد والآخرة فحسب . بل نظم أعمال الانسان في الدنيا لتكون وسيلة الى الآخرة . وشرع من القوانين في الحياة المدنية ما ينظم الهيئة الاجتماعية . وعلاقات الافراد والامم . وهذه ليست طريقة عظماء الرجال رجال الدول . أو رجال السيف . بل المعروف عن كل عظيم انه استعان بالاحكام العسكرية ليمنع حريه الناس في حدود القوانين التي يضعها لصالح الدولة أو الفكرة التي يقيمها وهذا هو الامر الشاذ في دعوة الاسلام . فلقد كانت مبادئه عامة

ولننتقل الآن إلى مسألة أخرى جديرة بالنظر والبحث وهي اننا لو فرضنا محمدا ﷺ رجلا عظيما فحسب هل كان يتبع تلك الخطة التي اتبعها في نشر دعوته ؟ وهل كان ينتخب لها ذلك الوسط والزمن اللذين قام فيهما ؟ وهل كان من صالحه أن يقوم بهذا النوع من الدعوة لله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لقد أجمع المؤرخون أن مكة كانت وثنية حقا . ولكن ما ضرر الذي يصيب العالم من عبادة الاوثان أو الاحجار مادام ذلك لا يؤثر في حياتهم ومعاشهم . وهذه أمة اليابان مثلا تخلفات في الوثنية إلى العهد الحديث ومع ذلك طفرت إلى الحضارة طفرة واحدة فالضرر الذي يحصل من عبادة الاوثان إن هو الا ضرر في نوع من انواع التفكير الصحيح . وإذا كان الدين هو معرفة حقيقة الله فقط من غير أن يكون وراء هذه الحقيقة مبادىء أخرى تنقذ البشرية من براثن الاوهام واستغلال العقول لتساوت جميع الاديان . وهناك أديان تكاد تلمس التوحيد ولكنها خالية من روح المنطق فترى في هذه الاديان أن البقر معبود يقدس . ويعد روثها بركة وتشرب أبوالها في حين تعد فريقا من الناس نجسا لا يصح لمسه ويجعل هذا الفريق من الناس محكوما عليه أن يعمل في الاقذار والاوساخ . فما الفائدة التي تعود على العالم من مثل هذا غير العبث بالانسانية .

وهناك بعض الفرق التي اخترعت لها مذاهب في الاديان السماوية ورجعت بالانسان القهقري الى انواع عبادة الاصنام والاشخاص . فيوزن صاحب المذهب بالذهب كل عام ويؤخذ هذا الذهب من اتباع مذهبه ، ومن هذا يتضح لك أن التوحيد هو تحرير الفكر من كل شيء ؛ ولنرجع إلى ما كان سائداً في مكة .

فالمهم والواضح أن اليهود — اتباع الدين الالهي الاول — كانوا يستغلون أموال هؤلاء الوثنيين بالربا الفاحش إلى حد استعباد الناس ودفعهم بينانهم للبغاء تسديداً للديون الباهظة التي جرها الربا الفاحش

وقد كانت حالة العرب الوثنيين من الفقر والاملاق والبؤس والتشرد مما يستوقف النظر العادي . وكانت مصيبتهم الاقتصادية والادبية مما يبعث على التفكير في هدم اليهودية لا الوثنية . فاذا أضفت إلى ذلك أن مكة ليست بلداً زراعياً بل واد غير ذي زرع تكتنفه الجبال والصحارى علمت أن كل أرزاق

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الناس كانت من التجارة ورعاية الماشية في الاماكن البعيدة .

ومكة على حالها الآن أهون بكثير من مكة قبل الاسلام . فمورد مياهها الآن متوفر من [عين زبيدة] الذى جر اليها بعد الاسلام وكانت قبل بنقلها جافا .

وإذا عرفنا أن محمداً ﷺ كان تاجراً فان هذه مسألة لابد أنه كان يعرفها . وهي أنه رأى بعينيه وسمع باذنيه ، صدر الم الناس وفقرهم هذا الفقر الذي يقاسيه أهله وعشيرته من الربا والاملاق نتيجة طغيان أصحاب رؤوس الاموال من اليهود الذين استأثروا بتشريع القوانين بمكة ، فاذلوا بهذا التشريع أعناق العرب ودفعوهم دفعا إلى استثمار اعراضهم في البغاء (١) .

فالرجل العظيم الذي يوجد في مثل هذه الظروف لو كان غير محمد ﷺ ونصب نفسه للدفاع عن المظلوم ونصرة الضعيف فانه كان يتخذ طريقا مباشرا للقضاء على أصل الداء من منابته والتاريخ يدلنا على أن عظماء الرجال الذين عاشوا في مثل تلك العهود وجهوا جهودهم لاقصر الطرق فقاموا بالدعوة الاشتراكية ومحاربة أصحاب رؤوس الاموال ، أو البلشفية أو غير ذلك مما تراه مفصلا في كتب التاريخ عندما يستأثر بعض الناس بالامن ويستبدوا بالنفوس ، ولعل دراسة أعاظم الرجال تدعونا الى تأييد هذا الرأى — فنابليون مثلا لما رأى الثورات تمزق فرنسا لم يقم لدعوة الى الزهد بل عمل على حصر السلطة في يده من طريق الحرب والقيادة ، وانتظم في سلك الجنود حتى وجه الانظار الى مهارته كقائد وأظهر نفسه وكبر من شأن عبقريته بفتح ايطاليا ثم عمد الى كل الطرق التي تحمله فنصلا فامبراطوراً

ومحمد على باشا . عمل مثل هذا أيضا

---

(١) نعم إن البغاء كان فاشيا في الاماء وكن يشترين للاتجار باعراضهن وفي ذلك نزل النهي في القرآن (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) وقلما كانت تزني حرة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكان أسهل طريق أمام سيدنا محمد ﷺ أن يستغل عبادة الاوثان ولم يكن فيها وفي مبدئها شيء عن الربا ، فاذا جمع القلوب حوله وقبض على ناصية السلطة ضرب نفوذه على ما حوله واستغله في الاصلاح وأول ما يوجه نظره هو الحالة الاقتصاديه والادبية من طريق مباشر يمنع كل ما كان يشكو منه الناس

والمطلع على تاريخ العرب في الجاهلية يرى أن الدعوة كانت ممهدة لمثل هذا الرأي ، وما كان عليه الا أن يستثير عواطف الناس في سوق من أسواق العرب ويدعوهم الى دعوة اقتصادية صرفة فيلتف حوله جماعة من أشداء السواعد ومفتولي العضل ويهاجم بها بيوت اليهود فيأخذ أموالهم ويطردهم ويحرر الناس من رقهم المادي . ويدلنا على صحة هذا الرأي ما نراه متجليا من روح الكراهية لاصحاب رؤوس الاموال . وانتشار الدعوة الي الرفق بالمظلوم فقد كانت الشعراء والخطباء مهدت فعلا الطريق الى مثل هذه الدعوة وتألف فعلا أنصار لمن يقومون بمثل هذه الدعوة يدلك على ذلك اشتات من قصائد وأشعار جاهلية في وصف هذه الحالة كقول بشر بن المغيرة عن اليهود :

وكلهم قد نال شبعا لبطنه وشبع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه

وقال الاعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

كما يدلك علي ذلك عادة وأد البنات في طبقة الاشراف ضنا بهن ان يكن في يوم من الايام موضع استغلال للبغاء

فمن من عظماء الرجال يكون في مثل تلك الظروف ولا يقوم بحرب مباشرة ويستغل هذا الشعور الملتهب ويضرب في الصميم بنهب اليهود وقتلهم ، هذا هو الرأى الذي توحيه الظروف ، معاداة اليهود وكراهيتهم وطردهم ، ولكن جماعة المستشرقين يقلبون الحقائق ويقولون ان محمداً أراد استغلال اليهود وهذا هو المنطق المعكوس والكلام الهراء الذي لا يقوم عليه برهان ، فالعلل التي كانت

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تشكو منها الانسانية لم تكن متجهة الى العقيدة بل الى أنواع المعاملات المدنية والاجتماعية .

اما أن يقوم محمد ﷺ ويفكر في طريق شاق ملتو ويبدأ بمعاداة أهله في عقائدهم . ويسفه جيرانه وقومه في آرائهم ويهزأ بعقليتهم فأول ما يقابل به هذا النوع من التفكير في تلك الظروف هو تلك تهمة التي اتهموه هم أنفسهم بها أنه مجنون . لان هذا يثير الرأى العام عليه وما كان يقول به عاقل حكيم — لو كان عليه السلام مستسلما لنفسه وحدها من غير قوة عليا تؤيده وتوحي اليه وتدفعه دفعا الى هذا الطريق الشائك الملوء بالمخاطر .

كما أن مكة البعيدة السحيقة لم تكن أصلح مكان لمثل هذه الدعوة لان الشخص العادي الذي ينظر الي اصلاح العالم لا ينتخب أقل البلدان عمرانا لدعوته . وماذا يكون رأي العقلاء لو قام رجل في أقل قرى الصعيد شأنا ليدعو دعوة اصلاح سياسي أو عمراني في مصر كافة . أو في العالم أجمع ؟

ومن الدهش أن الدعوة من أولها انبثت على مبدأ واحد هو الدعوة لله وحده . أليست هذه طريقة ملتوية ؟ وما الذي جعله يتمسك بدعوته هذه بعد أن سعي اليه زعماء العرب وأهله يولونه رياستهم ويعرضون عليه السلطان المطلق في الامر والنهي فابى ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره ؟

لقد كان في استقلال شعورهم هذا ملكا كبيراً ودولة يطرد بها مصادر ألم العرب وشقائهم . وكانت فرصة ذهبية لجمع القلوب حوله وضرب المرابين واصحاب رؤوس الاموال ومفسدي الاعراض

لنقف قليلا ولنتدبر . ألم يستغل كل عظماء الرجال مثل هذا الظرف ؟ ألم يخلق نابليون ومحمد علي وكرومول وغيرهم مثل هذا الظرف ؟ وان تاريخ عظماء الرجال يخبرنا أن أول عمل يقومون به هو استغلال عواطف الناس لامعاداتهم في عقائدهم وأخلاقهم .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما ان يبدأ شخص ما تعاداة الناس وتحديهم كلهم . وضرب كرامتهم وعزتهم وعقولهم . فضرب من السياسة لم يعرف قبل سيدنا محمد ولم يعرف بعده.

وهذا تاريخ سيدنا موسى وسيدنا عيسى أمامنا وإنا لنرى ان دعوتهما تخالف هذا كل المخالفة . ولكل نبي ظروف وآية

والخلاصة :

(١) ان نفسية أي رجل عادي عاش في ذلك الزمن ما كانت لتتخذ من وسائل الاصلاح مثل هذا الطريق الشاذ

(٢) ان أسهل الطرق لاستغلال الشعور لم يكن قاعدة . بل كانت القاعدة تحدي الناس أجمعين وهذا ضرب من الاعجاز

(٣) ان الذين يعترفون بالالهامات العالية في نفسية سيدنا محمد ﷺ يقتربون من الحقيقة لو عرفوا أن هذه الالهامات فوق مستوى البشرية

(٤) الذين يحكمون اليوم على السيرة الشريفة بأسبابها ونتائجها لو عاشوا في ذلك الزمن لكان لهم رأي آخر

****

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل الخامس

التوحيد هو روح الحرية

كان بودي أن أجعل مقدمة البحث في التوحيد ملخصا لنشأة فكرة الاديان في العالم وأن أتناول بالتحليل كل دور من أدوار التفكير الانساني الاول على ثقافته الضئيلة ليعثر على سر الوجود ويتفهم تلك القوة المسيطرة على العالم فتسير به على هذا النمط المحكم الذي أدهش عقل الانسان منذ تكوينه إلى الآن

الا أن هذا البحث يعد من قبيل المعلومات العامة في التاريخ القديم وكثير منها معروف وفيه الدليل على أن فكرة الانسان في وجود قوة أكبر من قوته تكاد تكون في قدمها وعهدها كعهد الانسان على ظهر البسيطة وان العقل أدرك بفطرته أن هذه القوة موجودة ولما أعيته الحيل في حسها ولمسها جهد ان يدركها من مظاهرها وآثارها في الحياة فعبد النيل لانه يقوت الشعب ويعود بالخير والبركات وعبد النار لانها مصدر قوة عظمى ويشعر بضررها فعبدها خوفا منها . وعبد الحيوانات المائية كالتماسيح لانه ظن أن الروح القوية أو روح القوة تحل فيها وقدس الابقار لان في لبنها قوة له ، ثم عبد أشخاص الابطال في صور من تماثيلهم لانه رأى فيهم قوة انسانية فوق قوة الانسان العادي، ثم فكر في أقوى المؤثرات في الوجود فعبد الشمس وحدها.

كان الانسان في كل هذه الظروف يتلمس إيجاد سر الوجود والعثور على معرفة حقيقة روح الحياة

يقول بعض المشتغلين بالفلسفة الحرة أن الانسان لم يبحث بغريزته عبثا عن مصدر تلك القوة إلا لانه ضعيف في كثير من أوقات حياته وقليل الحيلة فيما ليس

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من قدمائه . وقليل الادراك لظواهر الطبيعة التي تبهر نفسه فهو في حال المرض لا يقوى بنفسه على محاربة الداء. وفي حال الجدب لا يقدر على انزال الماء من السماء . فلجأ من ضعفه أن يستمد العون من قوة أخرى تخيلها انها أكبر منه سلطانا على الوجود ورمز لها بتماثيل يسجد بين يديها يستمد العون منها ولو تمشينا قليلا مع هذه النظرية والفرض لخرجنا منها بنتيجة لا تقبل الشك وهي اعتراف الانسان اعترافا صريحا بعجزه منذ القدم إلى يومنا هذا في حل سر الوجود وقوته المطلق . وفكره الشخصي مهما علت ثقافته . ومهدت أمامه أسباب العلم .

وهذه نتيجة هامة فيتذكرها القارىء لاننا سنعود اليها فيما بعد . غير اننا نشير الان الى أن اعتراف الانسان صراحة بعجزه وضعفه جعله ينظر الى العالم نظرة فلسفية من غير أن يشعر ، فقد اعتقد أنه لم يوجد لا ليكون ضعيفا ذليلا فتناهى في طلب الذل والتقشف والزهد والخنوع، فاخذ يتلمس طرق ارضاء خياله عن القوة المسيرة للعالم من طريق اذلال النفس وقتلها بانواع شتى من التعذيب ترى صورا منها في الاديان القديمة التي ما زالت آثارها باقية حتى اليوم كفقراء الهنود الذين يتعبدون بالجلوس على المسامير أو رفع ايديهم الى أعلى حتى تجف أو تتقدد أو غرس شص من الحديد في ظهورهم أو يلقون على الاشجار . وقد تغالى الانسان في زعمه هذا منذ القدم حتى قدم الدم الانساني قربانا لاستجلاب ارضاء .

وقد يقال إن العالم تطور كثيرا ووجد فيه من العلماء والفلاسفة من أرشدوه الى معرفة شيء عن النفس الانسانية ومع ذلك لا نشك أن فطرة الانسان قد جعلته يفكر في القوة التي أوجدت هذه الكائنات وكانت فكرة الدين جزءاً من عقلية الانسان ، ونرى ذلك متجليا عند استكشاف (كورتس) لامريكا الوسطى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتوغله في بلاد المكسيك لاول مرة حيث حدثنا عن وجود ديانات فيها لا تختلف كثيرا عن ديانات العالم القديم ووصف لنا ذبائح البشرية قربانا للآلهة ، مما يدل على ان فكرة الدين واحدة في العالم القديم والجديد متأصلة وجزء من تكوين الانسان ، وان كان الطريق للعبادة مرسوما على قدر فهم الانسان معنى الحياة كما يوحيه اليه ضعفه وعجزه والتماس معرفة تلك القوة العظمى التي أوجدته وصيرت العالم بذلك النظام البديع الذي بهر نفسه

واذا تتبعت تاريخ هذا التطور وجدت أنه حتى بعد ظهور أديان سماوية استمر تعذيب النفس واحتمال الاذى وكانت منتشرة في أوربا في البلاد التي يفتحها المسلمون حيث يحدثنا التاريخ ان بعض المتقشفين أخذوا يعذبون انفسهم تقربا لله بأنواع من العذاب كربط السلاسل حتى يتقيح ويفسد ويتساقط منه الدود ، وكعدم الاستحمام وعدم تغيير الملابس حتى تتساقط من نفسها ، وكالجوع المستمر حتى الاشراف على الموت أو غير ذلك من ضروب الاحتمال للآلام (١)

---

(١) جاء في صحيفة ٦٠٣ من كتاب دنيانا الغريبة — أن المسيحية في القرنين الاولين منها كانت تعد تعذيب الجسم أرقى صفات التقى فالقديس هيلاريون لم يحلق الا مرة في العام في عيد الفصح . ولم يغتسل أبدا حتى صار جسده كالحجر الخفاف ولم يغير ملابسه حتى تتساقط من نفسها

والقديس مكاريوس كان يحمل دائما ثمانين رطلا من الحديد وينام في مستنقع لكي تلدغه الهوام . والقديس يوزيبس عاش ثلاثين سنة في بئر جافة وكان يحمل مائة وخمسين رطلا من الحديد . إلى غير ذلك من أنواع التعذيب

(our wonderful world p. 603)

والحكيم العربي يقول : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، وجاء في الأثر : ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض لنفسك عبادة الله ، فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي كل طرف من هذه الظروف نرى ظاهرة أخرى في تفكير الانسان وهي ان هناك واسطة بين الانسان وتلك القوة القادرة التي تخيلها فاستغل قديما جماعة الكهنة في مصر ذلك حتى نازعوا الملوك سلطانهم وفي البلاد التي ما زالت في الوحشية الاولى أقامت أمثالهم مقام السحرة أو غير ذلك مما يطول شرحه وفي الهند نرى سلطان كهنة المنبوذين يكاد يشاطر الرجل رزقه وانهم يعيشون عالة على الناس من قبيل الاستجداء الديني

***

بعد هذه المقدمة الوجيزة لتاريخ فكرة الدين نعتذر عن عدم الاطالة لان هذا الموضوع من المعلومات العامة التي يستطيع الباحث ان يجدها في الكتب المتعلقة بهذا الموضوع ولعله يستطيع اذا اطلع عليها ان يلم بها إلماما تاما وان يعرف أن التوحيد في الله كان معروفا حتى قبل ظهور الاسلام لان هناك اديانا سماوية سبقته ولكن كبار عقول الفلاسفة حتى بعد ظهور الاديان أخذوا يتلمسون اسبابا منطقية ليقنعوا انفسهم بوجود خالق

ويطول بنا أيضا شرح هذا . إلا أننا نشير إلى أنهم انقسموا ثلاث فرق

[١] فريق نظر إلى الاديان بفكره الفاحص فقط ثم اقتنع

[٢] وفريق فرض الشك وأراد أن يقنع نفسه من طريق التشكيك في كل ما أمامه من الاديان

[٣] وفريق ترك كل هذا واراد أن يبحث عن سر الوجود بنفسه . فاما الفريق الذي اقتنع بنفسه ببحث الاديان التي أمامه فلا مناقشة لنا معه

وأما الفريق الذي أخذ يتشكك ليقنع نفسه من طريق الشك فعلى رأسه [ديكارت] وهذا مذهبه أقل ما فيه أنه مبني على زعزعة المنطق ونحن الرجل يفرض نفسه مثلا أعلى في الكمال العقلي فيريد أن يقنع نفسه بنفسه لا من طريق

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تفهم الشيء بدلائله بل طريق التشكيك فيه وهنا لابد أن تعترض شخص أمور أكثر تعقيداً من أن يحيط بنفسه والمضرب لك مثلا ديكارت نفسه لا يعرف شيئا من العربية فلا يمكن أن يعرف إعجاز القرآن . وديكارت لا يعرف شيئا من علم الفلك فلا يمكنه أن يفسر الآيات التي تعد إعجازا في علم الفلك كما توجد آيات أخرى تعد اعجازا في الطب لا يمكنه فهمها .

ومن عيوب العقل الانساني انه كثير الزهو بنفسه وان الفيلسوف يظن نفسه فضلا في كل شيء مع ان ديناً كالدين الاسلامي تناول كل أنواع التفكير والتشريع وهذا أكثر من ان يحكم عليه انسان واحد .

أما فريق الثنويين فليس من موضوعنا مناقشتهم لاننا نرى في القرآن اعجازاً يفهمه وان الاسلام يتمشى مع العلم جنباً الى جنب وان في آيات « خلق الانسان من علق » و « خلقناكم من ضين » و « خلقناكم أطواراً » لأدلة اذا فهمها هؤلاء الناس لخروا ساجدين إلا اننا لا نتكلم في هذا البحث الآن . وانما نقتصر على الاعجاز النفسي في الاسلام . على اننا نرى من وجهة أخرى ان الموضوعات العلمية الفنية تتمشى جنباً الى جنب مع الاسلام فأول آية من آيات القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم »

فأنت ترى أن أول نداء للاسلام كان على دعامتين . الله والعلم . وترى كثيراً من آيات قرآن أحالت على العلم تفهم دقائق الحياة وعناصرها . وتركت للعقل البشري حريته في البحث والاستقصاء . وتركت للفكر والسمع والبصر والافئدة سبيلا لمعرفة الله عن طريق علم : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » وقد قامت الدعوة الاسلامية على مناقشة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والظاهرة الغريبة جدا أن الاسلام لم يجعل فاصلا بين المرء وربه وجعل الناس كلهم سواسية . ان أكرمكم عند الله اتقاكم . وما محمد لا رسول قد خلت من قبله الرسل وهو انسان كجميع الناس لولا انه نبي كريم وبهذا ترى أن التوحيد ضرب الحجر على العقول ضربة قاضية . وضرب استضعاف المرء لنفسه ضربة قاتلة . وساوى بين الناس جميعهم ، كما هدم كل أساس للافكار الخيالية في التقرب من الله بطريق تعذيب النفس — ن هذا الدين متين فاوغل فيه برفق كما ضرب الوساطة بين العبد وخالقه ضربة لا قيام لها

انظر وتأمل هذا النبي الكريم . على جلاله وعظمته وعلى مكانته عند الله والناس لما رأى رجلا مقبلا يرتعد رهبة قال عليه السلام [خفض عليك أنا ابن أمرأة كانت تأكل القديد بمكة)

في هذه الحادثة وحدها : وفي هذا الحديث وحده كل معاني الحرية وكل معاني المساواة وكل معاني حكمة الاسلام في الحرية الشخصية

ولنذكر لك أثر التوحيد في تكوين النفس ، وكيف تطور الفكر الانساني بمبدأ التوحيد ، ونبتت عند الناس فكرة الحرية الشخصية والدينية منذ الساعة الاولى التي قرع سمع العالم هذا النداء الاسلامي

لقد كان طبيعيا أن تصادم هذه الدعوة الحرية بكل معانيها بالعقائد التقليدية التي سبقت الاسلام . وهي عبارة عن اعتراف الانسان بضعفه اعترافا صريحا — كما تقدم — واقراره بحدود ضيقة لعقله لفهم تلك القوة الهائلة المسيطرة على العالم وعبادة البطولة والابطال و لقوة في رموز من التمثيل يستلهمها وقت الضيق ، ويتقرب منها عند الحاجة ، فقام نزاع شديد بين هذه التقاليد الموروثة في الجمود الفكري

ورأى الناس لدعوة لله وانها عن طريق الفهم والحجة والبرهان والعقل فنشبت معركة هائلة بين العقل و لقوة ، ومظاهر القوة مادية محضة فلجأ المكذبون إلى ايذاء النبي وصحبه وانزال العذاب بهم مما يشيب لهوله الولدان ، بالضرب وبالحرق ، و لكي ، بكل انواع الوحشية

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك لان عقول هؤلاء الناس لم تكن في أدمغتهم ، ولكن في أيديهم وفي أدوات اعتدائهم ، كما رباهم على ذلك هؤلاء الناس الذين استغلوا ضعفهم الفكري ، فاستغلوا عواطفهم لاستدرار الاموال منهم

ولقد صبر محمد ﷺ وأصحابه على الاذى والعذاب ، وهذا الصبر والثبات في موضعها ضرب من ضروب تطور الفكر الانساني من حال إلى حال ، فالناس قبل الاسلام كانوا يحتملون العذاب تقربا من الله ، ويحتملون الاذى الفكرى من غير فكرة معينة عن الله ولكن أصرار المسلمين على عقيدتهم ، واحتمالهم الآلام في سبيلها ، هو دفاع عن حرية الرأي والعقيدة دفاع عن حرية التفكير ، دفاع عن الحرية بكامل معانيها ، فصاروا يقبلون العذاب في مقاومة العادات والاخلاق الموروثة ، وفي سبيل تحرر الفكر

وهناك ظاهرة غريبة . أغرب ما يتصوره العقل . فقد مضت ثلاثة أعوام على دعوته ﷺ ولم يتبعه الا ثلاثة عشر شخصاً وهذا يدلك على مقدار جمود الفكر في تلك الايام . وإذا قست ذلك بما يحصل في زمننا هذا لوجدت فرقا كبيراً . فان حرية التفكير الآن تجعل كثيراً من الناس يعتنقون المبادىء الحديثة أيا كانت . حتى المبشرين والمستشرقين تجد لهم أتباعا وأنصاراً

على ان الغريب في هذه الظاهرة في ثبات أصحاب النبي على الاذى انه لم يكن بيده شيء ما من حطام الدنيا ولم يكن لديه من المغريات ما يغريهم لهذا الاحتمال . ولو كان رجلا عظيما فقط كما يدعي المستشرقون لغير من خطته وحبب دعوته الى الناس بتغيير وجهتها لاقرب طريق الى عقولهم

ولكن هكذا كان ، فالاديان التي سبقت الاسلام كان لها زعماء من رجالاتها قد استغفوا العقول ، ففضوا على التفكير قضاء يكاد يكون مبرما ، ولذلك كانت رسالة محمد ﷺ شاقة في بناء التفكير الانساني من أساسه على مبادىء صحيحة هي توحيد الله ، وأما ما بقي من الدنيا فقد صار مباحا للعقل والفكر في حدود المنطق الحكيم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد رأيت فيما قدمنا من أحوال العالم وقت البعثة ان العالم كان في حالة جمود فكري وركود سياسي وأدبي وان المرأة كانت في الدرك الاسفل ، وان الرأسمالية كانت طغت على العلم وملكت أزمته ، ولم يكن هناك وسيلة لانهاض العالم من عثرته

فما دوت كلمة التوحيد والعلم والتفكير ، عرف العقل مكانه ومقامه ومركزه في الوجود ، وعرف الناس انهم كلهم سواء لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وان لا سلطان على العقل ولا رياسة للعقائد ، وان الثواب والعقاب ليس بيد انسان كائنا من كان والجنة لاتباع ولا توهب ، وان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة «اطلبوا العلم ولو بالصين»

وهكذا تحررت العقول وعرف الناس قدر أنفسهم ، وانه لا فارق بينهم ولا شيء يسيطر على افهامهم ، غير العلم ووحي الضمير عن طريق الفهم والحجة

هذه هي المبادىء التي لا توافق الاستعمار ، والتي يعمل المستشرقون منذ القدم على مقاومتها ، وهي التي قال عنها « سيكارد » ان الاسلام في روحها الخاصة ينافي مصلحتنا فيجب التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لنا

هذه هي المبادىء التي جعلت للاسلام أعداء من المسيطرين على البلاد الاسلامية فربوا فريق المستشرقين لكي يناهضوها

وهذه المبادىء هي الحرية والاخاء والمساواة التي تمخضت عنها الثورة الفرنسوية بعد عشرات السنين من الهول والمذابح البشرية وبعد اثنى عشر قرنا من ظهور الاسلام ، وبعد أن قررها القرآن حقا من حقوق الانسان ، وجعلها أساس العقيدة ، وفرضها على الناس دينا وايمانا قبل ان تكون مبادىء

ثم انظر إلى قرارة الآلام البشرية التي ولدت في الثورة الفرنسوية ما سموه حقوق الانسان في الوجود والحرية الشخصية والفكرة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على أن هذه الثورة لم تكن الا لانتزاع حرية الناس من أيدي المستبدين بها ووازن بين ذلك وبين المبدأ الاسمى الذي وضعه القرآن في الحرية الشخصية والمساواة بين الناس حتى النبي نفسه لم يدع سلطاناً ولا سيطرة بل لا يملك لنفسه شيئاً إلا ما شاء الله (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون)

أليست هذه هي مبادئ المساواة بأوسع معانيها . خصوصاً إذا أضفنا إلى ذلك آية (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك)

فقل ان الانسان لاول اعترف صراحة بضعفه وتمثل القوة العليا في الاشياء المرئية القوية والمفيدة كالشمس وفي الاظلال فصورهم تمثيل يتذكرهم بها ويتقدم إلى هذه التماثيل بالتقرب و بالخشوع و الاستدلال وكان أول معجزات التوحيد محو هذا أيضاً ليكون الفكر حراً من مؤثرات الاشباح التي تلوح دائماً للعين فتؤثر في العقيدة . وحرية الفكر . ولئن كان في الاديان الاخرى شيء من ذلك فمن قاموا بمداولات التماثيل (١) سعوا لابطالها للاصلاح الفكري الديني وهذا جزء قليل من أجزاء التوحيد وعنصر من عناصره . أفلا ترى بعد ذلك التأثير النفسي للتوحيد وأثره في حرية الفكر والصراحة في تحرير الفكر من كل قيد يؤثر فيه ؟

وهلا ترى معي ان أثر تكريم بعض الاشخاص بكلمة أضرحة وقبور عليه من قبيل الذكرى التذكيرية فقط بين المسلمين قد جر السذج والهمل من الناس الى الاعتقاد بأمور تنافي دينهم . ؟

(١) مارتن لوثر . صاحب مذهب البروتستنت

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا الدين فالتوحيد الصريح أساس المساواة بين الناس . وجعلهم كلهم طبقة واحدة وهذا هو الاخاء الانساني للشعوب جميعها ولم تتمخض لاجيال كلها عنه إلا بعد الحرب العظمى في جمعية الامم وان كانت هذه الفكرة لم تبد صريحة للآن . إلا ان التربية والتهذيب والرقي الفكري سيجر العالم إلى المباديء الاسلامية على رغم من يتبجحون بانكاره وعلى رغم أنف الجمود الفكري الذي طغى على العالم بتأثير قوم يستفيدون ويستمدون نفوذهم من تقييد العقل وتضليله وعدم تحريره

ويقول بعض المشتغلين بالفلسفة الحرة — لماذا يعتمد الانسان على الدين في فهم الفضيلة والاخاء ؟ ولماذا لا يبلغ ذلك بالتعليم وان يعمل الخير لانه عمل انساني وان يأنف من الشر لانه عمل وحشي ؟

وهذا القول على ظاهره مسحة من العقل ولكن منطقه ناقص وغير سليم لان العقول البشرية تتفاوت في تقديرها للخير والشر . وما تراه بعض الامم خيراً يراه غيرها شراً في العادات البسيطة، وقد مر بك ان الامم التي لم تتمدن جعلت الذبائح البشرية قرباناً للالهة عملا خيراً . وقد تدهش اذا علمت ان الرقي والتعليم مهما كان تقدما لم يغيرا شيئا من عقائد البوذيين في الهند . وان أكبر الزعماء كغاندى على علمه وفضله يقول ان الزلازل غضبة من الله . ولامانع من الاعتقاد بذلك ،وان كان لها أسباب طبيعية معروفة ، وقد يكون ذلك من باب موافقة أقدر لاقدر . ولا زالت المرأة التي في حالة النفاس قذرة يعامل بالاهمال في أقذر مكان . ولا زالت القابلة التي تولدها تدخل عليها بأقذر الثياب ولا يزال للكهنة على كل شيء ضريبة حتى أصبح ربع السكان من الكهنة الذين يعيشون على هذه الاموال . وكذلك نرى في حياة المرأة حتى في اليابان أمراً لم تألفه النفوس في جميع أصقاع الارض وهو تقديم صاحب البيت

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

زوجته هدية لضيفه اذا بات في منزله (١) . مع ان اليابان من أرقى البلاد مدنية وتعليما ، وهذا يدلنا على انه لا يوجد ضابط للتعليم ولا حد للعادات

ومن هذا كله الدين الاسلامي عالميا، يضع حدود الغرائز والعادات ويضع قوانين لمعنى الانسانية ومعنى البشرية ، وان العالم الآن مدين بنشاطه الحاضر الى تحرير الفكر الذي أوجده الاسلام ولو كره المبطلون

وهنا قد يعترضنا انسان فيقول لنا ان تحرير الفكر كان جزءاً من الفلسفة اليونانية ومن ضمن تعاليم سقراط و فلاطون وارسطو . ثم يكرر لنا الاقوال التي نقرأها دائما في الكتب الغربية من ان العالم مدين بحرية الفكر لليونان .

وان فضل العرب لم يكن لا نقل الثقافة اليونانية وتسليمها الى أوروبا الحديثة وان العرب أنفسهم مدينون للفلسفة اليونانية ونحن نسلم ذلك حق التسليم ولكننا نقول ان حرية التفكير شيء ومبادىء العلوم الطبيعية والمنطقية شيء آخر ، وان دساتير اليونان القديمة ومناقشاتهم الجدلية كانت ضربا من التجارب الاولى كان بعضها ناجحاً وكثير منها كان خطأ صريحاً كما نرى في علوم العناصر المكونة للعالم، والامزجة البشرية ، فالفلسفة اليونانية هي مبادىء العلوم ، ولكن حرية الفكر وتحديد الايمان على وجهة واحدة ، وجعل العلم مرتبطاً بالايمان ، وان لا حرج على العقل أن ينشط من عقاله ، وان تكون هناك شريعة بالقدر الذى يكفل الفضيلة ويمحو الضعف ويساوي بين الناس في حقوقهم المدنية والدينية — فهذه أمور لم تكن معروفة من قبل في أي شريعة أو دين .

أضف الى ذلك ان الفلسفة اليونانية قد خدمتها أوروبا ، وخدمها العرب

(١) وأبطلت هذه العادة حديثا من كثرة نقد الاوروبيين « جولة فى ربوع الشرق » لمحمد ثابت

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قبلهم خدمة جليلة فمباحثها مستفيضة وهذا الكتب الكثيرة المؤلفة بروح الانصاف والتضخيم والتكبير والشرح والتفسير فكانت هذه دعاية لذلك الفلسفة قد غطت على سمعة فلسفة أجل منها وسأعطيك مثلا ترى منه أثر هذه الدعاية

فأنت تعلم أن الاسلام وان كان دينا تاما الا انه في الحقيقة تشريع يعامل الغرائز الطبيعية ونزعات النفس في حدود العقل والحكمة وترى أن مدارس الحقوق في العالم الغربي تدرس القوانين الرومانية ونظام التشريع الدستوري في اليونان والرومان درسا مستفيضا وأما التشريع الاسلامي على ما فيه من جلال فليس موضوع دراسة علمية فنية ولا يعرفه أحد من المتشرعين الاجانب . أفلا ترى معي الآن أن الدعاية للقانون الروماني والدستور اليوناني أكبر من قيمتهما بالقياس على القانون الاسلامي المدني والجنائي ودستور الشورى والحكومة الديمقراطية ؟

أليس هذا من قبيل تعصب أوروبا لاصلها اللاتيني حتى في الدراسات الحرة ؟ وقل لي كم متشرع في مقارنة القوانين يعرف ما في الاسلام من قانون مدني وجعله موضوع بحث في رسالة خاصة

ألست ترى معي أن دراسة حرية الفكر الاسلامية على مبادىء التوحيد موضوع جدير بالنظر والبحث المستفيض ؟ ألم يكن للتوحيد ذلك الفضل العظيم في جمع القلوب فكون وحدة بشرية بين الممالك المختلفة التي دخلها العرب ولا زالت هذه الوحدة باقية الى اليوم على غم تلك الخلافات التي يوقد لظاها المستشرقون والمبشرون وخلق مسائل لاقليات الدينية ؟ ولم يكن الفضل في كل ذلك لا فكرة التوحيد التي متى فقهتها الافهام واستوعبتها الافئدة كانت كلها في اتجاه واحد نحو الوحدة الانسانية والنهضة العقلية التي لا تفهم رجعية

ان المستشرقين والمستعمرين يفهمون ذلك حق الفهم ولذلك هم يعملون على مقاومة الاسلام

ولنتحدث لك الآن عن طرق تضليلهم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل السادس

أثر التوحيد الاجتماعي

لم يكن الفضل في مبادي، الاسلام لشخص معين. قد علمت أن محمداً عليه السلام كان يضع نفسه موضع الانسان، لا موضع صاحب السلطان، وكان هو وحده المثل الكامل في البذل، وفي العدل، فلم يستغل يوما مركزه ودعوته العظمى لنفسه ولا لشيء من حطام الدنيا بل كانت دعوته خالصة لله، ولتحرير الفكر، فلم يأخذ نصيبا من غنيمة يزيد على نصيب سواه، ولم يدع لنفسه شيئا خرق، ولم يقل ان صلته بالله تعالى تزيد على صلة العبد — وكلنا عبيد الله — ولم يفضل المؤمن الا بأنه رسول الله، وهذه منزلة اختاره لها الله سبحانه وتعالى

وكان أصحابه عليه السلام ينظرون اليه هذه النظرة أيضا ولذلك قال أبو بكر حين توفي عليه السلام ودهش الناس للخبر: (من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت)

وفي حياته عليه السلام لم يكن مستبداً برأيه في أمور الدنيا بل كانت أمور المسلمين شورى. وكان أصحابه يختلفون معه في الرأي، والتاريخ يدلنا على أن سيدنا عمر اختلف في الرأى مع سيدنا محمد ﷺ في نحو عشرين مسألة وعزز الوحي رأي عمر دون رأي رسول الله. أشهرها: مسائل قتل أسرى بدر، ومسألة الحجاب. ومسألة الخمر، ومسألة الاستغفار للمنافقين، الى غير ذلك

هذه الحقيقة ترشدنا الي مغزى كبير، وغاية كبري من مغازي التوحيد والنظر لى ان الاسلام لايجعل سلطاناً على النفوس والعقول والافهام الا الله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحده . وما دون ذلك بالجميع سواء وآراء الناس كلهم قابلة للشورى والفحص ولو كان لرأي لرسول الله نفسه

وليس بعد ذلك وضوح لتقديس حرية الفكر ، التي هي دعامة من الدعامات الاصلية في الانسان وهذا هو أظهر معنى من معاني الاسلام

ولكن جمهرة المستشرقين يعمدون الى القاموس ويتفهمون منها معني كلمة الاسلام . ويقولون عنه ما قال مرجوليوث ان معناه (الذل والخضوع) ومع ذلك لا يقولون انه استسلام لله ، بل يقولون انه — الخضوع فقط —

ولقد رأيت في فصل التوحيد ان المعنى الذي تعبر عنه كلمة الاسلام هو معني تضيق به صفحات الكتب الضخمة ، وان له معني روحيا واجتماعيا كما سبق ذلك .

ولذلك كان أول أثر من آثار توحيد الله وترك المعتقدات القديمة هذ التوحيد بين القلوب في قبائل العرب ، وهذا التوحيد في الاخاء بين الشعوب المتفرقة ، وهذه النهضة الكبرى التي جمعت الامم كلها تحت طابع واحد حين افتتح العرب الاقطار وورثوا ملك الفرس والرومان

وانك اذا تصفحت التاريخ لعلمت ان الامم الفاتحة الفازية لاتخرج عن واحدة من ثلاث

١ — أمة تتخذ الحرب صناعة وحرفة وموردا للرزق كالاتراك الاقدمين في فتوحاتهم فلا يعمرون ما يفتحون

٢ — أمة تجارية كالفينيقيين والانجليز تغزو الممالك لفتح اسواق لتجارتها

٣ — أمة تطلب السعة من الارض لضيق اهلها بها فتغزو البلاد طلبا لمنفذ جديد يعيش أهلها فيه

وهناك من الامم من يفتتح الممالك حبا في الفتح ، كالاسكندر ونابليون

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأمثالهما وهؤلاء تموت فتوحاتهم بموتهم

ولم يحدثنا التاريخ ان أمة من الامم فتحت الممالك لاجل بث فكرة أو نشر مبدأ غير العرب بعد الاسلام ، فالعرب قاموا بفتوحاتهم لنشر المبدأ والفكرة وتعميم الوحدة البشرية

يتجلى لك ذلك من كتب رسول الله ﷺ للملوك والا كاسرة ، ولم يكن في هذه الدعوة غير نشر فكرة التوحيد ولم يكن عليه السلام من زخرف الدنيا بحيث يحاكي من كانبهم في الارستقراطية والعظمة ولكنه كان يدعوهم دعوة ديمقراطية متواضعة

يقول مرجوليث — ان الاسلام هو الدين الحربي ، مشيرا بذلك الى الغزوات والى مبدأ القتال في الفتح الاسلامي والى تخيير الامم غير الاسلامية بين القتال والجزية

وليست المسألة في غموض يدعو الى كل هذا الغمز واللمز فالجزية هي نوع من الزكاة على غير المسلم (١) ، والاسلام دين فيه كل معاني الديمقراطية الاشتراكية والحرب وسيلة

ليس من ينكر ان للجهل عقوبة ، وليس من ينكر ان الجمود الفكري والاستسلام للتقاليد نوع من الرجعية العالمية وليس لمستشرق ان يلوم الاسلام على هذا وليس له ان يضع رأيه في كفة ميزان ورأي عقلاء العالم أجمع في الكفة الاخرى .

فها نحن أولاء قد عرفنا أن دعوة الاسلام لله ، وللعلم وليس في هذه الدعوة عار على الانسانية

---

(١) لاجل حمايته ومعاملته بما يعامل به المسلمون . له ما لهم . وعليه ما عليهم فان عجز المسلمون عن حماية الذمي لم يكن لهم الحق في اخذ الجزية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد رأيت أن الزكاة فرض على كل مسلم . فكيف يعيش غير المسلم في هذا الوسط من غير زكاة .

وليس بيت مال المسلمين بمقصور على معاونة المسلم فحسب ، بل وغير المسلم بلا قيد ولا شرط

وليس أدل على تفسير هذا المعنى من مبادىء الاسلام التي شرحها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون بعده ، وقد رأينا من أعمالهم المساواة المطلقة بين المسلم وغير المسلم ، وفي قصاص سيدنا عمر من ابنه لاجل حق امرأة مسيحية قبطية ألف دليل ودليل

وفي قوله رضي الله عنه « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » كل مبادىء الاسلام من الحرية والاخاء والمساواة

وفي وصايا سيدنا علي للاشتر النخعي الذي ولاه على مصر ما يزيد الشرح ويجلي البيان ، ولقد قال له :

« . . . اعلم يامالك اني وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول من قبلك من عدل وجور وان الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ... ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فانهم صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق .

الى قوله : ثم الله الله في الطبقة السفلى ، من الذين لا حيلة لهم . والمساكين وأهل البؤس والزمنى فان في هذه الطبقة قانعا ومعترا واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافي الاسلام في كل بلد فان للاقصى منهم مثل ما للادنى - وكل قد استرعيت حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطر ، فانك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامك بالنظر في الكثير المهم . »

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن هذا ترى ان الجزية والخراج هما تنظيم الاحسان ، بلا فرق بين الاديان . لانهم متساوون في نظر الاسلام من جهة الخلق وليس جعل الاحسان قانونا يمار على الانسانية . وقد رأينا ان استجداء العواطف الاحسان أخفق ولم يثمر في كثير من البلاد المتمدنة . والارتكان على العاطفة الانسانية وحدها لم يكف منذ هجر الناس مبادىء الاسلام الى اليوم .

ولعمري انك لو اتخذت رسالة سيدنا علي هذه على حقيقتها لوجدتها تفسيراً واضحاً للسياسة الاسلامية ويكفي قوله لعامله « ان الناس إما أخ له في الدين أو نظير له في الخلق » أن يعرف الناس جميعا أن الاسلام لا يفرق بين الاديان في المعاملة والاخص في الاحسان والحق في بيت مال المسلمين .

والتفسير النفسي لكل ذلك هو أن الاسلام يعامل الغرائز البشرية بميزان العقل والحكمة والتشريع الاوروبي يعامل الناس بالتجارب والاختبار ولم يهتد إلى الآن الى أن الاسلام مبني على معرفة أدق بعلم النفس فالله الذي خلق النفوس حدد عقوباتها وحدد معرفتها . اذا علمت ذلك فلا اعتراض . ومن يقل ان هذا ليس من عند الله فليأت ببرهانه المنطقي الذي لا شعوذة فيه ويكفي ان مبدأ تحريم الربا أخذ الآن يتطور في أوروبا الحديثة الى شكل الافلاس في الدفع بتغيير أسعار العملة وتخفيض قيمتها فلا يدفع المدين لدائنه شيئاً ويكفي ان ألمانيا قللت من سعر عملتها الى الصفر لتجمع ذهب العالم ثم ألغت هذه العملة .

وليس من المجهول أن عقوبة الجمود لازمة .

فالتعليم الاجباري في كل بلاد أوروبا له قوانين تحميه وعقوبة الحبس توقع على من لا يعلم أولاده . وعقوبة السجن لمن يزور في ايراده حتى لا يدفع ضريبة الدخل . وضرائب الدخل والربح أصبحت مبدأ أوروبيا بعد ان قررها الاسلام بشكل أدق منذ أربعة عشر قرنا . في ركن من أركان الاسلام وهو الزكاة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهذه المبادىء التي تتقدم اليها أوروبا نتيجة الاختبار والتجارب هي المقررة في الشريعة الاسلامية . فطلب العلم فريضة على كل مؤمن ومؤمنة والنظام الاجتماعي في الشورى والسياسة العامة في الامن والعلاقات الشخصية كلها من تعاليم القرآن .

ولعل أبلغ رد على تعامل أوروبا بالربا وهي المعاملة التي حاربها الاسلام وحكم عليها بالموت هي تلك الظاهرة الغريبة التي تبدو في أوربا اليوم من قيام حكومات اشتراكية محضة تحرم الرأسمالية وجمع الثروة في أيدي فئة خاصة وهو عين تحريم الربا . لعدم استئثار فئة من الناس بالسلطة المالية والاستبداد بالعالم .

فهناك . لما وقعت أوروبا في الازمة المالية التي تنبأ بها الاسلام من التعامل بالربا . لجأت أوروبا وامريكا الى طرق الحيلة بفصل العملة عن الذهب فهبط ثمن النقود وأخذت تراوغ في دفع الفوائد بعد أن نقصت رأس المال تخلصا من ذلك الكابوس الاقتصادي .

أفليست بهذه الطريقة تتلمس طريقها في الظلام تهتدي الى طريق الخلاص وشعاع واحد من أشعة الاسلام يجلو عن العالم ذلك الظلام الدامس . وهو عدم التعامل بالربا . ثم أنظر الى الخراب الذي حل بمن استدانوا من المصارف المالية وبيعت أطيانهم بأبخس الاثمان . وما في ذلك من العبر

ان العالم يسير اليوم على نظام اقتصادي أصبح ثابتا وليس من السهل زعزعته بين يوم وليلة . ولكنه على أي حال نتيجة اعتماد الناس على تفكيرهم . ولكنهم أيضا يلجئون الى التخلص منه من طريق التجارب وهم يقتربون نحو الحقيقة بخطوات وئيدة .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل السابع

تعصب المستشرقين على التوحيد وحياة محمد

لقد رأيت في فصول سابقة أثر التوحيد في تحرير الفكر، ووضع الوسطة بين الله وبين الانسان، وأن من مبادئ الاسلام أن يشعر الانسان بكفه به، وقدرته العقلية على الفهم، والمساواة بين الناس أجمعين، وتحديد العلاقة بين الناس، وجعل صاحب السلطان نحو رعيته، وواجب الرعية نحو الراعي، كما يتجلى في كتاب سيدنا علي كرم الله وجهه، وقد تقدمت بذلة منه.

هذه المبادئ لا ترضي المستشرقين، ويسير من صح لأمة غريبة أن يقوموا أهلها حتى لا يندفعوا أيضا في ذلك المدى. ومن هنا كان عمل المستشرقين مزدوجا به تشويه الاسلام، وتغيير وجوه وحمايتهم منه.

ولذلك رأينا من فلاسفة أوروبا وآرائه أقل ما نقول فيها إنها عربدة في ثوب مزخرف وجهل في ثوب منمق.

وانظر لي رينان في كتابه عن ابن رشد ومذهبه إذ يقول: (إن خواص النفس السامية (أي التي منها العرب) تتجلى في السبق فطرتها إلى التوحيد من جهة الدين والى بساطته في اللغة وصناعة الفن والتدبية، فالنفس الآرية (التي منها أوروبا) فيميزها ميل فطري الى تعدد والسجع والتأليف)

وكثير من المستشرقين على هذا النمط مضحك من الاستنتاج ويهون بذلك أن يقولوا إن دين العرب على قدر عقولهم.

وليس أدل على عدم التطبق والعقل الحق في هذا القول من أن العرب قبل الاسلام كانوا مشركين غلاة في الشرك فكيف تفق ذلك مع مذهبه وما

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قاوموا الدعوة الاسلامية في مبدئها وكيف وصفهم في القرآن بقوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون)

وكل من شرك الجاهلية أن تلبيتهم في حجهم كانت الشرك المجسم فكانت قبيلة نزار تقول:

لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك

تملكه وما ملك

(راجع كتاب الاصنام)

ثم ارجع معنا إلى الفصل السابق من التوحيد وتدبر معنا سر الوحدة العربية وان الاسلام طبع الامم التي انتشر فيها بالطابع العربي وان لم يكونوا من المسلمين وليس أدل على العدل المطلق من أن يتكافأ الشخصان على تباين دينهم أمام الاسلام في القضاء. وأن لا يكون المسلم ميزة على غيره كما سبق

هذه المسألة وهي التوحيد في المعاملة والتوحيد في النظر الى الاجناس المختلفة في ظل الاسلام لا ترضي جماعة المستشرقين لانهم طلائع التفريق وتشتيت الوحدات العربية والبلاد الاسلامية

فاستفلوا علومهم في البحث والتنقيب واختراع النظريات الملفقة والدعاوى المشعوذة فهاجموا أسماء قواد المسلمين وعظماء الفاتحين وأخذوا ينسبونهم الى غير العرب وغير الاسلام

وبذلك أصبحنا نقرأ من نفثات أقلام المستشرقين مباحث علمية عويصة ـ اقرأ واعجب ـ أن أهالي مراكش من البربر ما عرفوا الاسلام وما آمنوا به في يوم من الايام وانهم ولا زالوا غير مسلمين وان العرب الذين فتحوا الاندلس وغزوا فرنسا وايطاليا كانوا مسيحيين وان طارق بن زياد القائد العظيم والذي رفع منار الاسلام في الاندلس لم يكن عربيا ولا مسلما ولكنه كان بربريا مسيحيا ـ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد استشار حبرو هذه النظرية للإصلاح فأولى في مراكش الى رجع التقرير لجنة العمل المغربي المقدم للمؤتمر الاسلامي ببيت المقدس صفحة ٤ ا

وليس من غرضنا أن نتكلم في موضوع سياسة والاستعمار وبل هذه النظريات ليس الغرض منها سوى تشتيت المسلمين وتفريقهم وخلق عصبيات متعددة فيهم ثم أصبح مألوفا لدى كل من له أقل إلمام أو اطلاع على أساليب الاستعمار وطرق ستهم واختلافات في الجنس والدين

أما وحدة اللغة العربية فقد عمل المستشرقون كل ما يمكن عمله لتشويه وتشويهها في مظهر أضعف فأتوا لهم بالقوات والبعثات العلمية خير منها استقبالا .

وصار بعدها المستشرق بريشو للغة اللاتينية للعربي ، ويقول عنه في مقدمة كتابه الذي يدرسه الطلبة الفرنسيون باللغة العربية

(أريد بوضوح أن تتعلم الكلام مع الاهالي الذين حولك ... .

الى أن يقول لا تظن أنني سأعلمك لغة القرآن فهذه اللغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهي لاتينية العربي وهي اللغة المستعملة في جنة محمد وسأجنب البحث دراستها في المستقبل اذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحور العين ،

وبهذه الطريقة أصبح المستشرقون يناصبون اللغة العربية الفصحى العداء فيتشككون في الشعر الجاهلي والشعر الجاهلي ويلقون الشك في كل شيء يتصل باللغة العربية وطعن في ذلك مباحث أقرب للتهريج منها الى العلم الصحيح وتراهم في ذلك آراء متناقضة وأفكار مردودة (راجع كتاب الشعر الفني)

بقيت مسألة القرآن الكريم الذي هو الدعامة الثابتة التي عجز العلماء عن التحرش بها وصخرة عظيمة التي كلما أراد كبير مستشرق أن ينطحها تكسرت جمجمته قبل أن يصل الى حرمها ، ولذلك رأينا آراءهم في ذلك تهريجا وتمويها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هاك المستشرق مرجوليث أستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد لم يترك قبيحة في العالم الا نسبها لسيدنا محمد ولم يترك فحشاً من القول إلا نسبه للقرآن واليك أمثلة من ذلك

قال في صحيفة ٢٣٦ من تاريخ العرب ما يأتي :

« وان كان محمد لم يترك تاريخاً مفصلاً لحياته إلا أن في القرآن كل عواطفه واحساسه . والقرآن كسجل تاريخي ليس مرتباً حسب الحوادث والتاريخ ثم يقول

« وربما كان الكثير منه مما لم يتذكره الرواة تماماً عند روايته وقد يكون بعضه دخيلاً في عصر متأخر وبعضه مسلم به أنه في عصر الرسول ولو انه نسب اليه خطأ »

ثم يستفرغ مرجوليث من فيه كل انواع الطعن فيقول من المشكوك فيه ايضاً لا نعلم اسم والد النبي لان لفظة عبد الله معناها في العهد الأخير الشخص المجهول وربما كان لها هذا المعنى عند إطلاقها على والد النبي وقصة يتمه التي وردت في القرآن لا يلزم أن نأخذ بها على معناها الادبي .

والعلاقة المفروضة بين أمه وبين أهل يثرب مسألة مشكوك فيها كالقصص التي جعلت الاسكندر الاكبر فارسياً أو مصرياً بالنسبة لوالدته

إلى هذا الحد بلغ ذوقه وأدب المستشرقين عند كلامهم عن رسول الله ﷺ وأن الحياء ليمنعني أن أذكر المعنى العادي الذي قصده مرجوليث من قوله (ابن عبد الله) نسبه إلى الاب المجهول ومع ذلك يعجب بعض الناس بالمستشرقين وهم لا يعرفون من أمرهم شيئاً

وانتقدنا طريقة مرجوليث هذا في هذا النوع من التهريج العلمي من غير سند أو دليل والقائه الكلام على عواهنه من غير اثبات فهذا — الخواجه — قال إن القرآن ملفق . وقال إن سيدنا محمداً — على أبسط تعبير — لا يعرف له أب ولا أم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونشرنا هذا الرد في مجلة المعرفة فأرسل مرجوليوث خطابا يعلق فيه على ما قلنا هذا نصه (١)

أما ما كتب الدكتور حسين الهراوي في ذم المستشرقين فلو كان ما أودع مقاله من الشخصيات تلق بالآداب لم يكن ما يمنع من الخوض في الموضوع والتمييز بين الخطأ والصواب . أما المسائل التي ذكرها فلست أرى فائدة في مداخلتها ، لانها أقرب إلى منابر الخطباء منها إلى مجالس الادباء

د . س . مرجليوث

ورداً على ذلك نقول إننا تناولنا من آراء مرجوليث مسألتين مما كتبه في تاريخ العالم العام في الفصل التاسع والثمانين

الاولى أنه ذكر عن سيدنا محمد انه مجهول الاب والام

والثانية قوله إن إعجاز أسلوب القرآن يفسر إما بأنه لا يمكن تقليده ، أو الاخبار بأمور يمكن التحقق منها — ولم يكن للنبي وسيلة لمعرفتها وأننا نعلم من القرآن أن كلا من هذين الادعائين — عندما أذيع — لم يسلم من النقد فالامر الاول أن الذوق الكتابي يختلف كباقي الاذواق وعن الامر الثاني لو أنه وجدت وسيلة للتحقق من صدق النبي فهذا يفهم منه أنه أمكنه بنفس هذه الوسيلة معرفة الامر الذي ذكره

وكذلك قال مرجوليث ، إن محمداً اعترف في مبدأ رسالته بمعرفة القراءة والكتابة :

ولنناقش مرجوليث الحساب في هذه المسائل التي يرى أن ردنا عليها فيها مضى أقرب إلى منابر الخطباء منه الى مجالس الادباء

---

(١) المعرفة فبراير سنة ١٩٣٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أي بعبارة أخرى ليس له علاقة بالادب العربي ولا بعلم من العلوم فاما عن والد سيدنا محمد فنحن ننكر على أدب أستاذ في جامعة اكسفورد ان يوجه مثل هذا الطعن في نبي يدين بدينه ملايين المسلمين . وان يتفوه بتهمة تترفع ابسط قواعد الآداب الاجتماعية العامة عن ان توجهها لاقل الناس مركزا - وثانيا - ان مرجوليث لايعرف شيئا عن الادب ولا الادب العربي . والا لعلم ان العرب كان فيهم نسابون ولو انه تكلم أولا عنهم — وعن مصادر الشك في أقوالهم وتنسيبهم — لكان لنا ان نناقشه بالادلة العلمية أما وهو لم يذكر شيئا من هذا فدليل على انه لايعرفه — وثالثا — لان جد محمد عليه السلام وعمه هما اللذان كفلاه صغيرا ولو كان مجهول الاب ما عرف له عم ولا جد وهذا يدل على ان مرجوليث لايعرف شيئا من تاريخ سيدنا محمد عليه السلام — ورابعا — ان عصبية محمد عليه السلام جمته في مبدأ رسالته ولو كان مجهول الاب ما كانت له عصبية

فاذا كان مرجوليث لايصدق شيئا من ذلك ولا بد ان يكون قرأه. فليقل لنا هو كيف يريد ان نصدق كلامه . وكيف امكن وجود أشخاص تربطهم بالنبي الكريم صلات العصبية حتى بعد الاسلام . اذا كنا ننكر كل ذلك لان مرجوليث قالها إذن فعلى العقول السلام .

ثم فليفسر لنا مرجوليث كيف مكنته نفسه وكيف مكنه ضميره ان يقول هذا . وعلى أي المراجع الوثوق بها عول في بحثه فهو اما لا يعرف شيئا مطلقا واما يريد التشهير والتشنيع ! وهذا مالا يشرف الباحثين .

ثم فليجبنا .. أليست الانساب والنسابون جزءا من صميم التاريخ والادب العربي أم هي ضروب من خطب المنابر ؟!

واذا كانت ضروبا من خطب المنابر فكيف حفظ التاريخ انساب قوم لم يكن لهم مرتبته عليه السلام من الوجهة الاجتماعية والاثر الخالد

وكيف امكن معرفة نسب والدته وزوجه خديجه ؟ ثم كيف امكن تنسيب شعراء مشهورين مثل امريء القيس وغيره . ؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما القول في مسألة اعجاز اسلوب القرآن بانها مسألة ذوق فاني أرى أن مرجوليث - كما يستدل من اسلوب خطابه - ذو اسلوب متنور كيف يجعله آخر شخص يؤخذ برأيه في مسألة الذوق الكتابي بعد ان تحدى القرآن نفسه الانس كلهم بل الانس والجن مجتمعين ان يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا. فلم يبق في نظر صاحبنا مرجوليث الا نقد الاسلوب بميزان الاذواق التي تختلف دقة ورقة

ونحن معه على ان يكون الشرط الاساسي ان تكون هذه الاذواق سليمة تتفهم روح العربية. والمستشرقون هم ابعد الناس عن تفهم تلك الروح ولهذا فانهم ينشرون مؤلفاتهم باللغات الاجنبية. وان كانت بعض مقدمات الكتب التي طبعوها قد كتبت باللغة العربية إلا ان الحكم على أساليبهم قد لا يرضيهم من الادب الكتابي الفني

واذا كان مرجوليث حصر اعجاز القرآن في الاسلوب والاخبار بالغيب فقد فاته ان ضروب الاعجاز في القرآن كثيرة ومتنوعة وليس من موضوعنا شرحها.

على اننا نسائل أستاذ الادب الاكبر!! ما قوله دام فضله في انواع الاعجاز العلمي التي اثبت العلم الحديث مدى صدقها ونذكر منها على سبيل المثال (وجعلنا الرياح لواقح) و (خلق الانسان من علق)

أي دور الحيوانات المنوية - و (وقد خلقكم اطوارا) وهي تتمشى مع العلم جنبا الى جنب ؟

فهل كشف العلم عن اعجاز هذه الآيات إلا حديثا ؟ وهل كان الميكروسكوب « المجهر » وعلم تكوين الاجنة معروفا من قبل عند نزول القرآن الكريم ؟؟

ولا يفوتنا ان نتكلم عن النقد فالنقد هو اسهل شيء في العالم وبابه اوسع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الايهاب — فقد ينقد شخص ما الخلقة البشرية بأن عيني الانسان في وجهه وليس له مثلهما في قفاه لينظر من خلف كما ينظر من الامام ؟؟

وقد ينتقد البهلوان طريقة السير على الاقدام ويستحسن ان يمشي الانسان على يديه رافعا قدميه في الهواء . كل هذه أنواع من النقد قد يراها هنها صحيحة ولكن الذوق السليم والعقل السليم بصفة خاصة يأبيانها على ناقد .

وهذا هو النقد الذي يوجه الى تجاهل نسب النبي العظيم واسلوب القرآن لايقصد به إلا مجرد تشهير وتشنيع

وكيف يفسر قوله تعالى (اقرأ وربك الاكرم) بانها اعتراف من النبي الكريم بمعرفة القراءة وهل هذا يدل على انه يفهم روح القرآن ؟

وقد اطيل البحث اذا استقصيت آراء مرجوليث في مصادر القرآن التي يقول بها ويقول بها معه المستشرقون الذين ينحون نحوه فقد ادعوا ان النبي عليه السلام قد درس كل الفلسفة اليونانية ثم حفظ التاريخ الفارسي ثم عرف كل الاديان الهندية القديمة كما اطلع على كل حكم الصين واخرج من كل هؤلاء كتابا سماه القرآن .

ومعنى ذلك ان الدراسات التي استنفدت القرون الاولى حتى القرن العشرين وتخصص لها العلماء الذين عكفوا على دراسة لغاتها المتعددة والجولان بين آثارها البالية كل هذا قد تعلمه محمد عليه السلام في سياحته للشام

فاذا رجعت الى التاريخ وجدت ان هذه السياحة لم تكن إلا ثلاثة أشهر كما تقدم

فهل في هذا منطق يناقش ؟ وهل هذا اسلوب المتبحر المتمرس في صميم الادب العربي والتاريخ ؟

ولما نشرت المعرفة هذه المقالة للرد على مرجوليث . قطع اشتراكه من المجلة ولم يعد يراسل صاحبها وكان هذا هو الجواب . فتأمل !!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الثامن

حكاية فنسنك والمجمع اللغوي الملكي

سنوك هرجورونيه(١) هو رئيس أكاديمية هولاندا ومكث سبعة عشر عاما في جاوه مستشارا للحكومة في الشؤون الاسلامية. وقيل لنا أنه اتقن العربية وأدعى الاسلام وسافر إلى مكة ومكث فيها خمسة اشهر . وكان يأتم به المسلمون في صلاتهم.

وفنسنك تلميذه . وساعده الايمن الآن في هولاندا . وفنسنك رئيس تحرير دائرة المعارف الاسلامية التي ملؤها الطعن الجارح في الاسلام والحشو بأقذر الثالب . يحررها جماعة المستشرقين ومنهم مبشرون وقسس وخصوصا الاب لامانس . ونصور قسيسا مبشرا يكتب عن حياة سيدنا محمد أو عن القرآن أو التاريخ الاسلامي . وأي روح علمي عليه وأي مبلغ من المال يأخذ أجراً ؟!

ونحن نعرف الشيء الكثير عن المبشرين وطرقهم وأساليبهم وطالما تمنيت هذا اليوم الذي أقابل فيه سنوك هذا و فنسنك لأقول لهم رأيي فيهم في صراحة وجرأة وليس الاسلام بحاف عن أحد . وليس القرآن بغريب في العالم وليست العقول التي تفهم بمعدومة .

ان عصابة فنسنك في تحرير دائرة المعارف الاسلامية تكتب على أسلوب القرون المتوسطة . وتفرض على الناس فرضا أن تعلمهم كل شيء ضد الاسلام . وأن تشعوذ في التاريخ وتخترع أساليب التهريج كما شرحناه لك في الفصول المتقدمة من هذا الكتاب

واسم فنسنك دائما يتردد على لساني وأعتقد أن هذا الرجل قضى الشطر الاكبر من عمره يعمل على السخرية من الاسلام . ولم يفضح عمله أنسان ولم

(١) ولد في ٨ فبراير سنة ١٨٥٧ وتوفي في ٤ يوليو سنة ١٩٣٦

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بتقد سنوك هرجرونيه ولطائفة المستشرقين تلاميذ تعلموا في أوروبا وعرفوا مطاعنهم في الاسلام وروجوه باللغة العربية في أثواب مباحث علمية فكان مقتي لهذه الفئة أشد من مقتي للخوارج فنسنك.

وصدر المرسوم الملكي ووجدت فيه اسم فنسنك، فنشرت في اعداد ١١ من اكتوبر سنة ١٩٣٣ المقال الآتي:

لما اشتدت وطأة المبشرين في الاغواء، والتضليل، وغزو عقول المسلمين بمختلف الطرق عكفنا على دراسة شيء غير قليل من طرقهم ومؤلفاتهم وخرجنا بنتيجة رسخت في عقيدتنا رسوخا قويا. هي ان المستشرقين هم طلائع المبشرين وانهم هم الذين يمهدون السبيل لتشكيك المسلمين في عقائدهم، وانهم هم الذين يمهدون للمبشرين سبيل الطعن في الاسلام وفي نبيه الكريم وانهم هم الذين يزودونهم بأنواع شتى من الشعوذة العلمية باسم الاساليب التحليلية، والنقد الفني وحرية الفكر، والمباحث العلمية الحرة

وخرجنا من كل مباحثنا هذه الى ان المستشرقين يتعمدون عند البحث في كل ما يختص بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ان يلفعوا استنتاجاتهم العلمية بآرائهم الشخصية على ما فيها من خطأ وما فيها من غرض بما تمليه عليهم روح الاستعمار ومقاومة الاسلام في شخصية سيدنا محمد ﷺ أو في القرآن نفسه

وقد قسمنا المستشرقين ثلاث فرق. قسم يختص بمباحث القرآن، وقسم يختص بمباحث سيدنا محمد، وقسم يختص بالتاريخ العربي الاسلامي

على ان من واجبنا ان ندرس كل مستشرق من جميع نواحيه وندرس كل مؤلفاته خصوصا اذا كان ممن يبحثون في القرآن أو حياة سيدنا محمد لان الخطأ اللفظي في كلمة عربية قد يجر الى البحث في العقائد الاسلامية وقد يكون له أثر شديد في الاسلام نفسه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولقد فكرنا هذا التفكير عندما أردنا أن نباحث أحد المستشرقين أو اشباه المستشرقين ورأيناه يقلب قواعد اللغة العربية رأسا على عقب لكي يدخل شكا في الاسلام واليك مثلا من ذلك

كان أحدهم يدعي أن الاسماء لابد أن يكون لها معنى . فقلنا له أن الاسم ما دل على مسمى وليس من الضروري أن يكون له معنى يشتق منه . أو أصل معروف ، والمسألة بسيطة . هكذا تعلمنا في المدارس الابتدائية وهكذا تراها في القاموس فاصر على رأيه . ولكنه أعطانا مثلا غريبا هو أصل كلمة (حراء) وهو سم الغار الذي تعبد فيه سيدنا محمد ﷺ فقلنا لم يرد في اللغة العربية ما يجعلني أعرف مصدره أو معناه فقال ان (حراء أصلها (هيرا) وهو لاتيني ومعناه المقدس قلت اني أعرف ما تريد أن تستنتج . ان هيرا وهو الجبل المقدس هو اسم أطلقه الرومان على هذا الجبل الذي تعبدوا فيه فأنت تجعله في مكان (جبل الاوليمبيا) في اليونان ، ويتأتى من هذا الاستنتاج أن محمداً عليه السلام اتبع الاديان الاخرى فاعطني الدليل المساوي على استنتاجك لانك تتكلم بلسان محركه عواطف ضد الاسلام . فسكت

والحق أن عقلية هؤلاء المستشرقين وأشباههم مدهشة فأي لفظة عربية لها مشابه في اللغات الاخرى قالوا ان العربية استعارتها واذن فما قولهم في لفظة « بيل وبيل » التي توجد في كثير من اللغات والعربية أيضا بنفس المعنى

نقول هذا مقدمة للبحث الذي سنكتبه عن فنسنك وهو الاسم الذي ورد في ضمن أعضاء المجمع اللغوي . وسنناقش رأيه الحسيب لان استنتاجاته ستؤخذ علينا وقد أصبح عضوا رسميا علينا أن نحترم رأيه

قالت دائرة المعارف الاسلامية تحت لفظة ابراهيم :

كان اسبرنجر أول من لاحظ أن شخصية ابراهيم كما وردت في القرآن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مرت بعده أطوار قبل أن تصبح في نهاية الامر مؤسسة الكعبة

وجاء سنوك هرجرونيه بعد ذلك بزمن فتوسع في بسط هذه الدعوى فقال ان ابراهيم في أقدم ما نزل من الوحي (في الذاريات آية ٢٤ وما بعدها ، الحجر آية ٥ وما بعدها ، الصافات آية ٨١ وما بعدها ، الانعام آية ٧٤ وما بعدها ، هود آية ٧٢ وما بعدها ، مريم آية ٤٢ وما بعدها ، الانبياء آية ٥٢ وما بعدها ، العنكبوت آية ١٥ وما بعدها) هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل ولم تذكر لاسماعيل صلة به . والى جانب هذا يشار الى ان الله لم يرسل من قبل الى العرب نذيرا (السجدة آية ٢ ، سبأ آية ٤٣ ، يسن آية ٥) ولم يذكر قط أن ابراهيم هو واضع البيت ولا انه أول المسلمين

أما السور المدنية فالامر فيها على غير ذلك . فابراهيم يدعى حنيفا مسلما . وهو واضع ملة ابراهيم رفع مع اسماعيل قواعد البيت المحرم . البقرة آية ١١٨ وما بعدها ، آل عمران آية ٦٠ الخ)

وسر هذا الاختلاف أن محمداً كان قد اعتمد على اليهود في مكة فما لبثوا ان اتخذوا حياله خطة عداء فلم يكن بد من أن يلتمس غيرهم ناصرا . هنالك هداه ذكاء مسدد الى شأن جديد لابي العرب ابراهيم ، وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليتصل بيهودية ابراهيم ، تلك اليهودية التي كانت ممهدة للاسلام . ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح ابراهيم أيضا المشيد لبيت هذه المدينة المقدس »

والذي يكون خالي الذهن عن المستشرقين واعمالهم يظن لاول وهلة أن هذا بحث جليل مستفيض استقصى اصحابه سبرنجر وسنوك وفنسنك كل آيات القرآن واستخرجوا منها مواضع الضعف ، ويخيل الى الناظر في هذا الموضوع ان الاسلام قد زعزعت اركانه وانهم اكتشفوا اكتشافا من

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الخطورة بمكان حين يدعون أن محمدا عليه السلام أراد استغلال اليهود ثم اخفق ثم هداه ذكاؤه المسدد لشان جديد لأبي العرب

اما اليهود فقد سبق ان شرحنا مركزهم في الكلام عن الوسط والبيئة التي سبقت الاسلام ، وأما هذه القائمة الكبيرة من الايات التي تخدع الناظر اليها فهي في نظرنا دليل على الضعف المطلق وهم بهذا أشبه بما يفعل الممثلون ، اذا وجدوا الرواية ضعيفة جعلوا المناظر أخاذة ، وأكثروا من أشخاص الرواية ودفعوا بين الجماهير قوما مأجورين للتصفيق

كل هذا فكرنا فيه قبل أن نتقدم لنقد هذا البحث لاننا نعرف طريقة المستشرقين الملتوية وشعوذتهم العلمية

وما علينا الا أن نراجع السور المكية جميعها والسور المدنية جميعها ونوازن بينها لنعرف اذا كانت السور المدنية هي وحدها التي انفردت بذكر نسب سيدنا محمد الى سيدنا ابراهيم بأبي البيت العتيق أولا ؟ وفيما اذا كانت الحقائق التاريخية التي في متناول يدنا تتفق مع استنباط فنسنك أم لا . وما غرضه في التعريض بسيدنا محمد الى هذه الدرجة ؟؟

علينا اذن أن نراجع كل ذلك لنتمشى معه في بحثه فان كان ما قاله حقيقيا كان لنا أن نبحث فى استنباطه أيضا وعن السبب في عدم ذكر تلك الصلة في السور المكية اذ ربما كانت من المعترف بها ولا توجد مناسبة لتوكيدها في القرآن . أما اذا كان ما نقل من الآيات خطأ كان الرجل قد عثر من أول الطريق فلنتركه في تلك الحفرة التي وقع فيها ولننظر اليه كيف يجاهد في الخروج منها

ونحن لا يخامرنا شك في أن هذا الدين متين وان فنسنك وسبرنجر وسنوك أقل علما بفهم روح القرآن فضلا عن نقده

اذن فلنسر في البحث على بركة الله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال فنسنك :- انه لم تذكر في السور المكية صلة لسيدنا اسماعيل بسيدنا ابراهيم . فهل هذا حقيق ؟ وذكر لنا سورة الانعام بالنص فهل هذا حقيق ؟ لقد ذكر الآية الرابعة والسبعين بالنص أيضا فانظر الى الآية الخامسة والثمانين حيث ذكر اسماعيل صراحة « واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين » نعم ان أسماء الانبياء وردت جملة ولكن لكل واحد منهم نسبه المعروف . والمسألة الجديرة بالنظر هي لماذا حذف فنسنك رقم هذه الآية من تلك القائمة الطويلة التي استقصاها مع أنها في نفس السورة التي ذكرها ؟ الجواب سهل وهو انها تهدم نظريته من أساسها . ولان هذه الآية نسبت هؤلاء الانبياء الى ابراهيم ثم الى نوح

ثم انظر الى سورة ابراهيم وهي مكية الا آيتي ٢٨ و٢٩ وانظر الى الآية ٣٤ وما بعدها حيث يقول ابراهيم :

« ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم - الى قوله تعالى - الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل »

اذن فقد ورد في السور المكية التي اعتمد عليها فنسنك أن اسماعيل هو ابن ابراهيم وان ابراهيم دعا ربه عند بيت الله المحرم وقد ذكر هذا البيت في السور المكية التي أنكر وجودها فنسنك

نحن لا ندهش من اكتشاف الحقيقة فما كنا نشك فيها ولكننا ندهش أن قوما ينتسبون للعلم ويخدعون الناس جهلا أو تجاهلا

المسألة الثانية:

هل ورد في الآيات التي ذكرها فنسنك أن الاسلام دين قديم يمت الى ملة ابراهيم ؟ واذا كانت هذه الحقيقة قد وردت فلماذا لم يذكرها فنسنك ؟

ارجع الى نفس السور التي ذكرها فنسنك ففي الذاريات في الآية ٢٣ وما بعدها تجد حديث ضيف ابراهيم المكرمين يبشرونه بابنه ويقصون عليه قصة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لوط ومدينته وفي الآية ٣٤ يقول « فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين »

اذن ففي هذه الآية اعتراف صريح أن الاسلام دين قديم . هو ملة ابراهيم حيث يحدثه ضيفه عن بيت المسلمين :

اذن فدعوى فنسنك كلها خطأ . واستنتاجه كله خطأ

المسألة الثالثة :

يقول فنسنك أن آيات السجدة وسبأ ويس تشير الى أن الله لم يرسل من قبل للعرب نذيرا . ولم يذكر قط أن ابراهيم هو واضع البيت ولا انه أول المسلمين :

يريد فنسنك أن يقول بعبارة أخرى أن التاريخ المأخوذ من الاناجيل هو الحقيقة . وان ابراهيم لم يذهب الى مكة . وان هذه الدعوى لم تذكر في القرآن الا بعد هجرة الى المدينة

وسياق هذه السورة من الآية ٣٤ وما بعدها :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الاصنام ، رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني . ومن عصاني فانك غفور رحيم ، ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم . وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

هذا يدل دلالة واضحة على أن ابراهيم كان أول من أسس هذا المكان المنعزل السحيق في واد غير ذي زرع لا تهوي اليه أفئدة الناس . ولا رزق فيه فدعا ربه : فاستجاب له

على أنه يؤخذ من ذلك أيضا أن هذا كان أول عهد هذا المكان بالانبياء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبتأسيس البيت ولم يذهب ابراهيم ليقيم دينا جديدا بين الناس في بلد آهل وهذا يستقيم مع معنى آية ٤٣ من سبأ في قوله تعالى « وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير »

يكفي أن نذكر لفنسنك انه لم يذكر الحقائق ولم يستقص مبحثه . وانه يستنبط قبل أن يبحث

أما الغرض من ذلك . فواضح لان الاستشراق مهنة ضد الشرق . وضد الاسلام

تاريخ هذا العدد

وضع تاريخ العدد الثالث نفسه على هذا العدد وصحة التاريخ انه : ٩ صفر سنة ١٣٥٥ — ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٦

فرصة لمشتركي المنار

رأينا ان نخفض لمشتركي المنار قيمة الاشتراك اذا سددوا اشتراك المجلد الخامس والثلاثين وذلك لنهاية رجب القادم فجعلناه خمسين قرشا للمشتركين في خارج القطر المصري وثلاثين للمشتركين في مصر فعلى الذين يحبون المنار ان يعملوا بالسداد انتهازا للفرصة ومساعدة لنا اذا أرادوا حياة المنار ولهم الشكر سلفا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل التاسع

حكاية فنسنك (١)

(المقال الثاني)

اذا قلبت أي كتاب اجتماعي أو عمراني باللغات الغربية يتكلم عن مصر أو الشرق أو الاسلام وجدت أشياء كثيرة لا يقرها عقل ولا يسيغها منطق وليست من الحقيقة في شيء

ويوجه نظرك بصفة خاصة ما يوصف به الاسلام من الصفات التي لا تنبو عن قواعد الذوق السليم والحقيقة فحسب . بل ان الكتاب الاوروبيين يصورون الاسلام بصورة بشعة قبيحة لا تكاد تقرؤها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ

فاذا كنت شرقيا ضعيفا أولت ما يكتب في تلك الكتب الاجتماعية بانه جهل من المؤلفين بأحوال الشرق وعاداته . واذا كنت مسلما أسفت كثيرا أن يوصف الاسلام بصورة بشعة بعيدة عن الواقع وأسفت على أن الاوروبيين لا يعرفون شيئا عن حقيقة الشرق بصفة عامة وعن الاسلام بصفة خاصة فليس حقيقا ما ذكره مارشال في كتابه « الزواج » أن الام في مصر لا يباح لها أن ترى وجه ابنتها بعد سن الرابعة عشرة من أثر الحجاب في الاسلام

وليس صحيحا ما جاء في هذا الكتاب أيضا من أن الفتاة الريفية المصرية يباح لها أن تعري جسمها كله أمام الرجال أما وجهها فلا يراه انسان

---

(١) ملخص مقالي ٣٠ اكتوبر في الاهرام وأول يناير سنة ١٩٣٤ في ضلال

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليس صحيحا ما وصف به الحجاب وما ذكره عن تعدد الزوجات . كما جاء في كتاب « نسبت عن الزواج والوراثة »

وليس صحيحا أن سيدنا محمدا كان رجلا شهوانيا محضا يشبع شهوات الشيخوخة بزواجه بالشابات « كما جاء في هذا الكتاب »

فأول ما نلاحظه في تلك الآراء انها مجرد تشنيع خال من الحق ومن العدل ويتجلى فيها سوء النية تجليا لا يقبل تأويلا أو تعليلا . ولا يمكن الدفاع عنه

ومن محاسن الكتب الافرنجية انها تكتب المصادر التي اعتمدت عليها في ابداء رأيها وتشير الى المراجع التي استقت منها تلك المعلومات . وكنت اتتبع تلك المراجع فأجدها راجعة الى بيئة واحدة هي جماعة المستشرقين

وفي الادب الافرنجي الحي كتب قيمة جدا تبحث في التاريخ العام والخاص وتاريخ الامم والنهضات العلمية . وهذه الكتب محترمة عند الاوروبيين فكنت أطالع فأجد فرقا كبيرا فيما تكتب من التاريخ القديم أو الحديث بلباقة ودقة علمية كوصف مصر القديمة وآثارها وسوريا وتاريخها . بل رأيت في تلك الكتب تاريخ بلدان ورسوم أماكن لا تستطيع أن تعرف موقعها على الخريطة ما لم ترجع الى معجمات مطولة ، وبين ما تكتب عن الاسلام ونبيه

وعن حياة سيدنا محمد أجد تحريفا ظاهرا وكذبا وضحا . وتهريجا قبيحا

وانظر الى مرجوليوث حيث يقول : ربما كانت الطبيعة الجغرافية أو المناخ الاقليمي هو السبب في تأخر المسلمين ولكن نظرية وجود رجل واحد « أي سيدنا محمد » يكون هو وحده الرسول بين الله والناس ويكون هو وحده آخر طريق لهذه النظرية هي ثاني سبب لتأخر المسلمين »

فمرجوليث لا يقول هذا لانهاض المسلمين ولكنه يقول هذا تشنيعا وهو

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الذى لم يترك نقيصة إلا ألصقها بالاسلام من غير سبب وها هو ذا كما ترى يتخيل نفسه على الأقل موزونا أو معقولا فيتكلم عن الاسلام . ولكي نفهم مقدار تحصيل مرجوليث هذا للغة العربية نأتي لك بالمثل الآتى الذي سرقه صديقنا الدكتور زكى مبارك

فقد تعرض مرجوليث لشرح هذه الابيات

يقول لي لواشون : كيف تحبها؟ فقلت لهم: بين القصر والمنزل

ولولا حذارى منهم لصدقتهم وقلت هوى لم يهوه قط أمثالي

وكم من شفيق قال مالك واجما فقلت: أبي مالي وتسألي مالي

والشطرة الاخيرة من هذه الابيات فيها خطأ كتابي فقط وصحته (فقلت ترى مالي وتسأل عن حالي) ولكن مرجوليث العالم الضليع الذى ينقد القرآن وأسلوبه ويتعرض للنبي ﷺ ويحقق تاريخ آبائه فيقول بأنه ابن عبد الله يعني لرجل المجهول هذا العالم العلامة والحبر الفهامة يقول إن الشطر الاخير صحته:

(فقلت أنا مالى وان تسألى مالي)

وليس هذا التصحيح هو المضحك وحده وان كان اشنع من الغلط الاول ولكن المضحك حقاً أن يكون المصحح أستاذ لغة عربية ويتعرض لاسلوب القرآن أو يدعي نقده!!

وليس في مقدورنا أن نعلل سبب وعوامل تأخر الامم الاسلامية فدعوا المستشرقين أنفسهم الاسباب

***

والظاهر أن المستشرقين جمعية دولية حتى إذا ألف مستشرق كتاباً أو كتيباً ظهر في ثلاث لغات حية دفعة واحدة في فرنسا وانجلترا وألمانيا مع أن طبع هذه الكتب قد يستنفد كل ثروة المستشرق في الطبع والمدهش انك ترى في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بمقدمة كل كتاب مستشرق قائمة بأسماء الذين عاونوه وساعدوه في البلدان الاخرى

وأنى لاعلم أن المستشرقين تنقصهم في مباحثهم عن الاسلام الروح العلمية وأن لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم . وهي أنهم يفرضون فرضا ثم يتلمسون الدليل عليه فاذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه والتمسوا الآيات التي تتناسب والمعنى المراد ولا مانع من بترها اذا اقتضى الحال أو تحريف معناها حسب الرغبة فيخرج القارئ من كلامهم وهو يتهم الاسلام بالتلفيق كما يقولون كما سبق شرحه في كلام مرجوليث .

بمثل تلك النواحي التي أسلفناها أصبحنا لا نقرأ للمستشرق شيئا إلا ونحن نحرص على تفكيرنا وان نعنى بتعرف الغرض الذي يرمي اليه قبل أن نثق بما يكتب وأن نقتفي أثره فيما يبحث وفي مستنداته لانه دائما يبتر الحقائق فيقول ان القرآن فيه آية (لا تقربوا الصلاة)

وسنعطيك مثلا آخر فيما قال فنسنك تحت كلمة كعبة في دائرة المعارف الاسلامية صفحة ٥٨٧ النسخة الانجليزية .

« نحن لا نعلم شيئا عن شعور محمد الشخصي في شبابه نحو الكعبة أو العبادات المكية ولكن المفروض انه لم يشذ عن الجماعة

« وان ما ذكر في سيرته عن هذه المسألة مدة وجوده في مكة لا يوثق من جهة القيمة التاريخية

« وان الآيات المكية لم تخبرنا شيئا عن هذه العلاقات في تلك المرحلة الهامة من حياة النبي . على انه لم يظهر حماسته في حادثة نحو الحرم المكي . وفي المرحلة الاولى بعد الهجرة كان محمد في شاغل بمسألة أخرى مختلفة عن هذه جد الاختلاف ولكن أخفقت العلاقات الطيبة المنتظرة مع اليهودية واليهود وهنالك حصل تغيير حيث أنه — بعد مضي عام ونصف عام على الهجرة ذكرت الكعبة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وذكر الحج في الوحي

« وأول مظهر من مظاهر التغيير كان وجهة القبلة . فلا يتجه المؤمنون في صلاتهم إلى القدس بل الى الكعبة — (قد نرى تقلب وجهك في السماء — الآيات) ومن الوجهة الامرية فان هذا التغيير في القبلة برر بانه استئناف ملة ابراهيم — وهي — أي ملة ابراهيم — اخترعت خصيصا لهذا الظرف السورة ١٢٩ — آية — و٣ — ١٩ — كما بين سنوك هرجرونيه

« وقيل أن ملة ابراهيم هذه كان اليهود قد أخفوها ثم أظهرها محمد ومن ثم ادمجت فيها عبادات مكة »

وبعد . فقد انتهت الفقرة التي نقلها من دائرة المعارف الاسلامية بقلم فنسنك ، فلنتعرف أغراضها ومراميها وحقيقتها

وأول ما يعترضنا عند النظر الى هذه الفقرة أن فنسنك رجل مقلد في السب والشتم والهجاء وان تقليده أعمى يقوده عكاز ضعيف من الاطلاع السطحي والظاهر انه في هذه المسألة يتبع آراء سنوك هرجرونيه ويلتمس أدلة جديدة ليضيفها الى أدلة أستاذه السخيفة

والمدهش أن هؤلاء المستشرقين يختلفون في كل شيء الا في هجاء محمد عليه الصلاة والسلام

فهذا فنسنك يقول : انه لا يعرف شيئا من شعور محمد عليه الصلاة والسلام نحو الكعبة في شبابه وبعد رسالته إلا بعد الهجرة بعام ونصف عام وان ما لديه من تاريخ حياته عليه الصلاة والسلام لا يصح أن يؤخذ أساسا تاريخيا

وزميل له في الاستشراق هو اميل درمنجهام يزعم أن محمدا كان يتعبد على مبادىء اليهودية أو النصرانية

ومرجوليث يقول ما قاله مالك في الخمر